المغني في التَّفْسِيرِ

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سُورَةُ الطَّلاقِ، سُورَةُ التَّحرِيمِ، سُورَةُ المُلْكِ، سُورَةُ القَلَمِ

(المجلَّدُ التَّاسِعُ والثَّلاثون)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الطَّلاقِ

سُورةُ الطَّلاقِ

سُورةُ الطَّلاقِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّلاقِ).[1]

سورةُ الطَّلاقِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ.[2]

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالطَّلاقِ، وما يترتَّبُ عليه.

---

(1) سُمِّيت بذلك لبيانِها كيفيَّةَ الطَّلاقِ الشَّرعيِّ، وما يترتَّبُ على الطَّلاقِ مِن العِدَّةِ والنَّفَقةِ والسُّكنى.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (9/249).

(2) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (5/295)، ((تفسير ابن الجوزي)) (4/295)، ((تفسير القرطبي)) (18/147)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/469)، ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (3/94).

نقل ابنُ عطية (٨/ ٣٢٦) الإجماعَ على مدنيّة سورة الطَّلاق، فقال: «هي مدنيّة بإجماع من أهل التفسير».

وقد نُصَّ على مدنية السورة أيضًا في تفسير ابن كثير (١٤/ ٢٦).

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- ذِكرُ الطَّلاقِ المشروعِ، وما يَعقُبُه مِن العِدَّةِ والإرضاعِ، والإنفاقِ والإسكانِ.

2- الإشهادُ على الطَّلاقِ، وعلى المراجَعةِ.

3- النَّهيُ عن الإضرارِ بالمطَلَّقاتِ، والتَّضييقِ عليهنَّ.

4- التَّذكيرُ المتكَرِّرُ بوُجوبِ تقوى اللهِ تعالى، والمحافظةِ على أداءِ تكاليفِه.

5- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ التَّوكُّلِ على اللهِ.

6- ذِكرُ سُوءِ عاقبةِ الَّذين فَسَقوا عن أمرِ ربِّهم، وخالَفوا رُسُلَه.

7- تذكيرُ الأمَّةِ برحمةِ اللهِ بهم؛ حيثُ أرسلَ إليهم رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم.

8- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

9- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ، وسَعةِ عِلمِه.

سُورةُ الطَّلاقِ

الآيات (1-3)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا
تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ
حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ
ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ
شَيْءٍ قَدْرًا (3)

غريب الكلمات:

لِعِدَّتِهِنَّ: عِدَّةُ المرأةِ: هي الأيَّامُ الَّتي بانقِضائِها يحِلُّ لها التَّزوُّجُ، وأصلُ (عَدد): يدُلُّ على إحصاءٍ.

وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ: أي: احفَظوها واضبِطوها، واعرِفوا ابتِداءَها وانتِهاءَها، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ.

بِفَاحِشَةٍ: الفاحِشةُ: الزِّنا، وتُطلَقُ الفاحشةُ أيضًا على كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ.

يَتَعَدَّ: أي: يتجاوَزْ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ.

حَسْبُهُ: أي: كافِيه، وأصلُ (حسب) هنا: يدُلُّ على كِفايةٍ.

قَدْرًا: أي: حَدًّا مَعلومًا، وأجَلًا مُعَيَّنًا، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ [(3)] –وأمَّتُه تبَعٌ له– إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فلْيَكُنْ تَطليقُكم لهنَّ مُراعًى فيه زَمَنُ عِدَّتِهِنَّ؛ لئلَّا تَطُولَ عليهِنَّ، وذلك بأن تُطلِّقوهُنَّ وَقْتَ طُهرِهنَّ الَّذي لم تُجامِعوهنَّ فيه، فلا تُطلِّقوهنَّ حالَ حَيضِهِنَّ، ولا في زَمَنِ طُهرٍ قد جامَعْتُموهنَّ فيه.

---

(3) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٦ – ٣٢٧ بتصــرف): «اختُلف في البداية بالنبي، ثم قوله تعالى بعد ذلك: ﴿طلَّقتم﴾؛ فقال بعض النحويين –حكاه الزهراوي–: ذلك خروج من مخاطبة أفراد إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود.

وقال آخرون منهم: إنّ نداء النبي – ﷺ – أُريدت أُمّته معه، فلذلك قال تعالى: ﴿طلَّقتم﴾.

وقال آخرون منهم: إنّ المعنى: يا أيها النبي قل لهم: ﴿إذا طلَّقتم﴾.

وقال آخرون: إنه من حيث يقول الرجل العظيم: فعلنا، وصَنَعْنا، خُوطب النبي – ﷺ – في هذه بــــ ﴿طلَّقتم﴾ إظهارًا لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبد الله بن أبيّ: ﴿هم الذين يقولون﴾ [المنافقون: ٧] إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذلك النبي في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة.

والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان، خُوطب النبي على معنى تنبيه لســـماع القول وتلقِّي الأمر، ثم قيل له: ﴿إذا طلَّقتم﴾ أي: أنت وأُمّتك، فقوله: ﴿إذا طلَّقتم﴾ ابتداء كلام لو ابتدأ السورة به.

وطلاق النساء حَلُّ عِصمتهنّ».

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّه طَلَّق امرأتَه وهي حائِضٌ، فذَكَر عُمَرُ لِرَسولِ اللهِ - ﷺ -، فتغَيَّظَ فيه رسولُ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ قال: لِيُراجِعْها، ثمَّ يُمْسِكْها حتَّى تَطهُرَ، ثمَّ تَحيضَ فتَطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقَها فلْيُطَلِّقْها طاهِرًا قَبْلَ أن يَمَسَّها؛ فتلك العِدَّةُ كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ)).[4]

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - طَلَّقَ حَفْصةَ، ثمَّ راجَعَها)).[5]

وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ.

أي: واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، فلا تَتهاوَنوا في ضَبطِ أيَّامِها، ومَعرفةِ بدايتِها ونهايتِها.[6]

---

(4) رواه البخاريُّ (4908) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1471).

قال القرطبي: (قال عُلماؤنا: طلاقُ السُّنَّةِ ما جمَع شُروطًا سبعةً: وهو أن يُطَلِّقَها واحدةً، وهي ممَّن تَحيضُ، طاهِرًا، لم يَمَسَّها في ذلك الطُّهرِ، ولا تَقَدَّمَه طلاقٌ في حَيضٍ، ولا تبِعَه طلاقٌ في طُهرٍ يَتْلوه، وخلا عن العِوَضِ.

وهذه الشُّروطُ السَّبعةُ من حديثِ ابنِ عُمَرَ).

((تفسير القرطبي)) (151/18).

ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (258/1).

(5) أخرجه أبو داودَ (2283)، والنَّسائيُّ (3560)، وابنُ ماجه (2016) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (4275)، والحاكم في ((المستدرك)) (215/2) -وقال: (على شرط الشَّيخينِ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (2016)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (421/1): (إسنادُه جَيِّدٌ قَوِيٌّ ثابت).

وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (197/9)، وصحَّح إسنادَه شعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (2283).

(6) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٦): «الطَّلاق على الجملة مكروه؛ لأنه تبديد شمْلٍ في الإسلام، وروى أبو موسى الأشعري أنّ النبي - ﷺ - قال: «لا تطلَّقوا النساء إلا من رِيبة؛ فإن الله لا يحب الذّواقين ولا الذّواقات».

وروى أنس أنه - عليه السلام - قال: «ما حلف بالطَّلاق، ولا استحلف به إلا منافق»». وقال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٧): «معنى هذه الآية: أن لا يُطلّق أحدٌ امرأته إلا في طُهرٍ لم يَمسّها فيه، هذا على مذهب مالك وغيره ممن قال بأن الأقراء: الأطهار، فيُطلّق عندهم المطلّق في طُهرٍ لم يمسّ فيه وتعتد به المرأة، ثم تَحيض حيضتين تُعتدّ بالطُّهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطُّهر

قال تعالى: وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ [البقرة: 228].

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ.

أي: واتَّقوا اللهَ الَّذي أحسَنَ إليكم -أيُّها الأزواجُ- فاحذَروا عِصْيانَ أمْرِه، وتَعَدِّيَ حُدودِه.(7)

لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ.

أي: لا تُخرِجوا مَن طلَّقتُم مِن نِسائِكم مِنَ البُيوتِ الَّتي كُنَّ يَسكُنَّ فيها قبْلَ طَلاقِهِنَّ، بل أبقوهنَّ فيها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُهنَّ كذلك.(8)

الثالث معتدة به، فإذا رأتْ أول الحَيْضة الثالثة حلَّت، ومَن قال: بأن الأقراء: الحيض -وهم العراقيون- قال: ﴿لعدتهن﴾ معناه: أن تُطلَّق طاهرًا، فتستقبل ثلاث حِيض كوامل، فإذا رأت الطُّهر بعد الثالثة حلَّتْ، ويخفُّ عند هؤلاء مسّ في طُهر الطَّلاق أو لم يمسّ، وكذلك مالك يقول: إن طلَّق في طُهر قد مسّ فيه مضى الطَّلاق.

ولا يجوز طلاق الحائض؛ لأنها تطول العِدّة عليها، وقيل: بل تعتدّ، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز ولو رضيته، والأصل في ذلك حديث عبد الله بن عمر قال: «طلَّقت امرأتي وهي حائض ...»».

(7) قال ابنُ كثير (١٤/ ٢٨): «من هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطَّلاق، وقسّموه إلى طلاق سُنَّة وطلاق بدعة، فطلاق السُّنَّة: أن يطلِّقها طاهرة من غير جماع، أو حاملًا قد استبان حمْلها.

والبدعة: هو أن يُطلِّقها في حال الحيض، أو في طُهرٍ قد جامعها فيه ولا يدري أحمَلت أم لا.

وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة: وهو طلاق الصغيرة، والآيسة، وغير المدخول بها».

(8) قال ابنُ تيمية (٨/ ٣٢٠ - ٣٢١): «لَمّا رأى عمرُ؟ أنّ المبتوتة لها السُّكنى والنّفقة فظنّ أنّ القرآن يدلّ عليه نازعه أكثر الصحابة، فمنهم مَن قال: لها السُّكنى فقط.

ومنهم مَن قال: لا نفقة لها ولا سُكنى.

وكان مِن هؤلاء ابن عباس، وجابر، وفاطمة بنت قيس، وهي التي روتْ عن النبي - ﷺ - أنه قال: «ليس لكِ نفقة ولا سُكنى».

فلمّا احتجوا عليها بحُجّة عمر، وهي قوله تعالى: ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾؛ قالت هي وغيرها من الصحابة -كابن عباس، وجابر، وغيرهما-: هذا في الرّجعية؛ لقوله تعالى: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ.

أي: إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً، وشَديدةَ القُبحِ، كبَذاءةِ اللِّسانِ، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، أو الوُقوعِ في مَعصيةٍ عَظيمةٍ كالزِّنا.(9)

أمرًا﴾ فأي أمر يُحدِث بعد الثلاث؟! وفقهاء الحديث كأحمد بن حنبل في ظاهر مذهبه وغيره من فقهاء الحديث مع فاطمة بنت قيس».

قال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٨): «سُـنَّة ذلك أن لا تبيتَ المرأة المطلَّقة بعيدة عن بيتها، ولا تغيب عنه نهارًا إلا في ضـرورة، وما لا خَطب له من جائز التصرف؛ وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء، فإن كان البيت مِلكًا للزوج أو بِكِراءٍ منه فهذا حكمه، فإن كان لها فعليه الكِراء».

(9) اختُلِف في معنى «الفاحشة» في هذا الموضع على خمسة أقوال: الأول: أنها الزنا، والإخراج -على ذلك- هو الإخراج لإقامة الحد.

والثاني: أنها البذاء على أحمائها.

والثالث: أنها كلّ معصية لله.

والرابع: أنها نشوز المرأة على زوجها.

والخامس: أنها خروج المرأة من بيتها قبل انقضاء عِدّتها.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ٣٦) -استنادًا إلى اللغة والعموم- جميع تلك المعاني، فقال: «الصواب مِن القول في ذلك عندي قول مَن قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية.

وذلك أنّ الفاحشة هي كلُّ أمر قبيح تُعُدِّي فيه حدُّه، فالزِّنا مِن ذلك، والسَّرَق والبَذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمُها أن تعتدَّ فيه منه، فأي ذلك فعلتْ وهي في عِدّتها فلزوجها إخراجها من بيتها؛ ذلك لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها».

وبنحوه قال ابنُ كثير (١٤/ ٢٨).

وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ.

أي: وتلك الأحكامُ المذكورةُ للطَّلاقِ والعِدَّةِ، والأمرِ ببَقاءِ المُطَلَّقةِ في بَيتِ زَوجِها حتَّى تنتهيَ عِدَّتُها: قد حدَّدها اللهُ وبيَّنها لكم؛ فَقِفُوا عِندَها، ولا تَعْتَدُوها.

وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

أي: ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ الَّتي شرَعَها لعِبادِه في الطَّلاقِ وغيرِه، فقد أضرَّ نَفْسَه بتَضييعِ مَصلَحتِها في الدُّنيا والآخِرةِ، واكتِسابِها الآثامَ.

لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا.

أي: لا تَدْري ما يَحدُثُ في مُستَقبَلِ الأيَّامِ؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ طَلاقِ الرَّجُلِ لزَوجتِه أمرًا نافِعًا لهما، وذلك بأن يُصلِحَ ذاتَ بَيْنِهما، ويُغيِّرَ ما في قُلوبِهما مِنَ البُغضِ والعَداوةِ إلى المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ؛ فيُراجِعَها.[10]

---

(10) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٩): «قوله تعالى: ﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا﴾، قال قتادة وغيره: يريد به: الرجعة، أي: أحصوا العِدّة، وامتثلوا هذه الأوامر المثقِّفة لنسائكم، الحافظة لأنسابكم، وطلِّقوا على السُّنَّة تجدوا المَخْلَص إن ندمتم؛ فإنكم لا تدرون لعل الرجعة تكون بَعْد، والإحداث في هذه الآية بين التوجه عبارة عما يوجد من التراجع.

وجوَّز قوم أن يكون المعنى: أمرًا مِن النسخ.

وفي ذلك بُعْد».

وقال ابنُ تيمية (٨/ ٣٢١): «لما قال تعالى: ﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا﴾ قال غيرُ واحد من الصحابة والتابعين والعلماء: هذا يدلُّ على أنّ الطَّلاق الذي ذكره الله هو الطَّلاق الرجعي؛ فإنه لو شرع إيقاع الثلاث عليه لكان المطلِّق يندم إذا فعل ذلك، ولا سبيل إلى رجعتها، فيحصل له ضرر بذلك، واللهُ أمر العباد بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم؛ ولهذا قال تعالى أيضًا بعد ذلك: ﴿فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف﴾ وهذا إنما يكون في الطَّلاق الرجعي، لا يكون في الثلاث، ولا في البائن».

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2).

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ.

أي: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ انتِهاءَ عِدَّتِهِنَّ فارْجِعوهنَّ إن شِئتُم، بشَرطِ إعطائِهِنَّ جَميعَ حُقوقِهِنَّ؛ كالنَّفَقةِ، والكِسوةِ، والمَسكَنِ، وحُسنِ الصُّحبةِ، مِن غَيرِ قَصدِ الإضرارِ بِهِنَّ وحَبْسِهِنَّ، أو اترُكوهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ فيَصِرْنَ بائِناتٍ مِنكم، بلا تعنيفٍ ولا مُشاتَمةٍ ولا مُخاصَمةٍ، مع إعطائِهِنَّ جَميعَ حُقوقِهِنَّ أيضًا؛ كبَقيَّةِ المَهرِ، ومُتعةِ الطَّلاقِ، وغَيرِ ذلك.

كما قال تعالى: وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ [البقرة: 231].

وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ.

أي: وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زوجاتِكم المطلَّقاتِ قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ، رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، ممَّن تَرضَونَ دِينَهما وأمانتَهما.(11)

وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ.

أي: وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ صَحيحةً على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها، بلا زِيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تغييرٍ؛ إخلاصًا للهِ تعالى، وامتِثالًا لأمْرِه.

ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ.

أي: ذلك الَّذي بيَّنَّاه لكم، وأمَرْناكم به مِن الأحكامِ: إنَّما يتَّعِظُ ويَعمَلُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ فهو الَّذي يخافُ عِقابَ اللهِ إن خالَفَ شَرْعَه.

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا.

أي: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه؛ في شأنِ الطَّلاقِ وغَيرِه، يَجعَلِ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا وَقَع فيه مِن شِدَّةٍ، فيَدفَعْ عنه ضُرَّه، ويُسَهِّلْ له أمْرَه.

---

(11) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٢٩ - ٣٣٠): «قوله تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ يريد: على الرَّجعة، وذلك شرط في صحة الرَّجعة، وللمرأة منْع الزوج من نفسها حتى يُشهِد.

وقال ابن عباس: المراد على الرجعة والطَّلاق؛ لأن الإشهاد يرفع من النوازل إشكالات كثيرة، وتقييد تاريخ الإشهاد من الإشهاد».

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3).

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ يُسَهِّلْ له أسبابَ الرِّزقِ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن جِهةٍ لا تَخطُرُ ببالِه، وعلى وَجهٍ لا يَشعُرُ به![12]

كما قال تعالى: لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ [النحل: 30].

وقال سبحانه: قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ [الزمر: 10].

وقال تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [الأعراف: 96].

---

(12) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٣٠): «قوله تعالى: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ قال عليُّ بن أبي طالب، وكثيرٌ من المتأولين: هو في معنى الطَّلاق، أي: ومَن لا يتعدى في طلاق السُّنَّة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجًا إن ندم بالرَّجعة، ويرزقه ما يُطعم أهله ويوسّع عليه، ومَن لا يتق الله فربّما طلَّق وبتَّ وندم، فلم يكن له مَخرجٌ، وزال عنه رزق زوجته.

وقد فسّر ابن عباس – رضي الله عنهما – نحو هذا».

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ [المائدة: 66].

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ.

أي: ومَن يَعتمِدْ على اللهِ وَحْدَه، ويُفَوِّضْ جميعَ أمرِه إليه في طَلَبِ الخَيرِ أو دَفعِ الشَّرِّ؛ فاللهُ كافِيه ما أهَمَّه مِن أمرِ دِينِه ودُنياه وآخِرتِه.

عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((لو أنَّكم توَكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ توَكُّلِه، لَرَزَقَكم كما يَرزُقُ الطَّيرَ؛ تَغْدو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا))(13). (14)

إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ.

أي: إنَّ اللهَ مُمْضٍ أمْرَه، فلا بُدَّ مِن نُفوذِ أمْرِ اللهِ وقَضائِه في خَلْقِه بما يَشاؤُه، وإن تأخَّرَ وَقتُه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه.(15)

---

(13) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ.
يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (80/2).

(14) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (2344) باختلافٍ يسيرٍ، وابنُ ماجه (4164)، وأحمدُ (370) واللَّفظُ لهما.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ).
وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصَّحيح)) (730)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (471/2)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4164)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (438/1).

(15) قال ابنُ جرير (٢٣/ ٤٧): «قوله: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ منقطع عن قوله: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.
ومعنى ذلك: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ بكلّ حال توكّل عليه العبد أو لم يتوكّل عليه».

قال تعالى: فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ [البروج: 16].

قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

أي: قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ ممَّا شَرَعَه وخَلَقَه وقدَّرَه حَدًّا مَعلومًا، ومِقدارًا مُعَيَّنًا، ووقتًا مَضروبًا؛ كالطَّلاقِ والعِدَّةِ، وحالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وغيرِ ذلك.(16)

كما قال تعالى: وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ [الرعد: 8].

وقال سبحانه: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ [الحجر: 21].

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٣٣١).

(16) قال ابنُ القيم (٣/ ١٦٥): «لما ذكر كفايته للمتوكّل عليه فربما أوهم ذلك تعجيل الكفاية وقت التوكّل، فعقّبه بقوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدرًا﴾ أي: وقتًا لا يتعدّاه فهو يسوقه إلى وقته الذي قدَّره له. فلا يستعجل المتوكّل ويقول: قد توكلتُ، ودعوتُ فلم أر شيئًا ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدَّره له».

سُورةُ الطَّلاقِ

الآيتان (4–5)

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5)

غريب الكلمات:

أَجَلُهُنَّ: أي: عِدَّتُهُنَّ. والأَجَلُ: غايةُ الوَقتِ في الموتِ وغَيرِه، والمُدَّةُ المَضروبةُ للشَّيءِ.

تفسير الآيتين:

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (4).

وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ.

أي: إنْ شكَكْتُم في عِدَّةِ أزواجِكم المُطَلَّقاتِ اللَّاتي انقطَع حيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه، فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ.(17)

---

(17) اختُلِف في معنى قوله: ﴿إن ارتبتم﴾ على ثلاثة أقوال: الأول: أنّ معنى ذلك: إن ارتبتم بالدم الذي يظهر منها لِكِبَرِها، أمن الحيض هو، أم من الاستحاضة.

وهذا قول مجاهد، والزُّهريّ، وابن زيد.

والثاني: أنّ معنى ذلك: إن ارتبتم بحكمهنّ، فلم تدروا ما الحكم في عدتهنّ.

وهذا قول أُبَيّ.

والثالث: أنّ معنى ذلك: إن ارتبتم بالدم الذي يظهر منها، أمن الحيض هو، أم من الاستحاضة؟ من كِبَرٍ كان ذلك أم من علّة؟

وهذا قول عكرمة، وقتادة.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ٥٢ – ٥٣) القولَ الثانيَ استنادًا إلى ظاهر اللفظ، والدلالة العقلية، فقال: «أولى الأقوال في ذلك بالصحة قول مَن قال: عني بذلك: إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهنّ.

وذلك أن معنى ذلك لو كان كما قاله مَن قال: إن ارتبتم بدمائهن فلم تدروا أدم حيض، أو استحاضة؟ لقيل: إن ارتبتن.

لأنهن إذا أشكل الدم عليهنّ فهنّ المرتابات بدماء أنفسهنّ لا غيرهنّ، وفي قوله: ﴿إن ارتبتم﴾ وخطابه الرجال بذلك دون النساء الدليل الواضح على صحة ما قلنا من أنّ معناه: إن ارتبتم أيها الرجال بالحكم فيهنّ.

وأخرى: وهو أنه –جلّ ثناؤه– قال: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم﴾ واليائسة من المَحيض هي التي لا ترجو مَحيضًا للكِبَر، ومحال أن يقال: ﴿واللائي يئسن﴾، ثم يقال: ارتبتم بيأسهن.

وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ.

أي: والمُطَلَّقاتُ اللّاتي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه كمرضٍ ونحوِه، فعِدَّتُهنَّ أيضًا ثلاثةُ أشهُرٍ.

وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ.

أي: وأمَّا المُطَلَّقاتُ الحوامِلُ فإنَّ عِدَّتَهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ.(18)

لأن اليأس: هو انقطاع الرجاء، والمرتاب بيأسها مرجوّ لها، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد، فإذا كان الصواب مِن القول في ذلك ما قلنا، فبيّن أن تأويل الآية: ﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم﴾ بالحكم فيهنّ، وفي عِددهن، فلم تدروا ما هو، فإنّ حكم عِددهنّ إذا طُلقن، وهنّ ممن دخل بهن أزواجهنّ فعِدّتهنّ ثلاثة أشهر».

ومالَ إلى هذا القول ابنُ كثير (١٤/ ٣٥ بتصرف)، فقال: «هو اختيار ابن جرير، وهو أظهر في المعنى، واحتجّ عليه بما رواه عن ...

أبيّ بن كعب».

وقال ابنُ عطية (٨/ ٣٣١ – ٣٣٢): «اليائسات من المحيض على مراتب: فيائسة هو أول يأسها، فهذه ترفع إلى السنة، ويبقيها الاحتياط على حكم مَن ليست بيائسة؛ لأنّا لا ندري لعلّ الدم يعود.

ويائسة قد انقطع عنها الدم؛ لأنها طَعنت في السن، ثم طُلّقت، وقد مرّت عادتها بانقطاع الدم، إلا أنها مما يُخاف أن تَحمل نادرًا، فهذه التي في الآية على أحد التأويلين في قوله: ﴿إن ارتبتم﴾، وهو قول مَن يجعل الارتياب بأمر الحمل، وهو الأظهر.

ويائسة قد هَرِمتْ حتى تتيقن أنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية؛ لأنها لا يُرتاب بحمْلها، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعًا فيما علمتَ، وهي في الآية على تأويل مَن يرى قوله: ﴿إن ارتبتم﴾ معناه في حكم اليائسات».

(18) اختُلِف في حكم قوله تعالى: ﴿وأُولاتُ الأَحمالِ أجَلُهُنَّ أنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، على قولين: الأول: أنه عامّ في المُطلّقات والمُتوفّى عنهنّ.

وهو قول ابن مسعود، والجمهور.

والثاني: أنه خاصّ في المطلّقات، وأما المُتوفّى عنها فإنّ عِدّتها آخر الأَجَلَيْن.

وهو قول عليّ، وابن عباس.

عن سُبَيعةَ الأسلَمِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّها كانت تحتَ سَعدِ بنِ خَولةَ، وهو في بَني عامِرِ بنِ لُؤَيٍّ، وكان ممَّن شَهِدَ بَدرًا، فتُوفِّيَ عنها في حَجَّةِ الوداعِ وهي حامِلٌ، فلم تَنشَبْ[19] أن وَضَعت حَمْلَها بعدَ وَفاتِه، فلمَّا تَعلَّتْ[20] مِن نِفاسِها تجمَّلَت للخُطَّابِ،[21] فدَخَل عليها أبو السَّنابِلِ بنُ بَعْكَكٍ -رجُلٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ- فقال لها: ما لي أَراكِ مُتجمِّلةً؟! لعلَّكِ تُرَجِّينَ النِّكاحَ! إنَّكِ -واللهِ- ما أنتِ بناكِحٍ حتَّى تَمُرَّ عليكِ أربَعةُ أشهُرٍ وعَشرٌ! قالت سُبَيعةُ: فلمَّا قال لي ذلك جَمَعْتُ علَيَّ ثيابي حينَ أمسَيْتُ، فأتَيْتُ

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ٥٨) القولَ الأوّلَ استنادًا إلى العموم، فقال: «الصواب من القول في ذلك أنه عام في المطلَّقات والمُتوفّى عنهن؛ لأنّ الله -جلّ وعز- عمَّ القول بذلك، فقال: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ ولم يخْصُص بذلك الخبر عن مطلَّقة دون مُتوفّى عنها، بل عمَّ الخبر به عن جميع أُولات الأحمال.

فإنّ ظنّ ظانٌّ أنّ قوله: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾ في سياق الخبر عن أحكام المطلّقات دون المُتوفّى عنهنّ، فهو بالخبر عن حكم المطلَّقة أولى من الخبر عنهنّ، وعن المُتوفّى عنهنّ- فإنّ الأمر بخلاف ما ظنّ، وذلك أنّ ذلك وإن كان في سياق الخبر عن أحكام المُطلَّقات، فإنه منقطع عن الخبر عن أحكام المطلَّقات، بل هو خبر مبتدأ عن أحكام عِدد جميع أولات الأحمال المطلَّقات منهن وغير المطلَّقات، ولا دلالة على أنه مراد به بعض الحوامل دون بعض من خبر ولا عقل، فهو على عمومه لما بيّنا».

وهو ظاهر كلام ابن عطية (٨/ ٣٣٢)، وابن تيمية (٦/ ٣٣٠)، وابن القيم (٣/ ١٦٦)، وابن كثير (١٤/ ٣٥).

(19) لم تَنشَبْ: أي: لم تمكُثْ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (110/10).

(20) تعَلَّتْ: أي: طَهُرَت.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (109/10).

(21) تجَمَّلت: أي: تزَيَّنت وتحَسَّنَت.

يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (110/1).

رسولَ اللهِ – ﷺ –، فسألْتُه عن ذلك، فأفتاني بأنِّي قد حلَلْتُ حينَ وَضَعْتُ حَملي، وأمَرَني بالتَّزوُّجِ إنْ بدا لي)).[22]

وعن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ أنَّ أبا سَلَمةَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ وابنَ عبَّاسٍ اجتمَعا عندَ أبي هُرَيرةَ، وهما يَذكُرانِ المرأةَ تُنفَسُ[23] بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: عِدَّتُها آخِرُ الأجَلَينِ، وقال أبو سَلَمةَ: قد حلَّتَ، فجعَلا يَتنازَعانِ ذلك، فقال أبو هُرَيرةَ: أنا مع ابنِ أخي –يعني: أبا سَلَمةَ– فبعَثوا كُرَيبًا مَولَى ابنِ عبَّاسٍ إلى أمِّ سَلَمةَ يَسألُها عن ذلك، فجاءَهم فأخبَرَهم أنَّ أمَّ سَلَمةَ قالت: ((إنَّ سُبَيعةَ الأسلَميَّةَ نُفِسَت بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، وإنَّها ذَكَرَت ذلك لرَسولِ اللهِ – ﷺ –، فأمَرَها أن تتزوَّجَ)).[24]

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِ دِينِه ودُنياه وآخِرَته.

قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [البقرة: 189].

وقال سبحانه: وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [الحجرات: 10].

---

(22) رواه البخاريُّ (3991)، ومسلمٌ (1484) واللَّفظُ له.

(23) تُنفَسُ: أي: تَلِدُ وتضَعُ حَمْلَها.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (95/5)، ((شرح النووي على مسلم)) (111/10).

(24) رواه البخاريُّ (4909)، ومسلمٌ (1485) واللَّفظُ له.

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (5).

ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ.

أي: ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم وأمَرْناكم به مِنَ الأحكامِ السَّابِقةِ: أمْرُ اللهِ أنزلَه اللهُ إليكم؛ لتَعمَلوا به، وتُعَظِّموه ولا تُخالِفوه.

وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يَمْحُ اللهُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثوابَ أعمالِه.

كما قال تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [النساء: 31].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الأنفال: 29].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ –كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائِرَ)).(25)

---

(25) رواه مسلم (233).

سُورةُ الطَّلاقِ

الآيتان (6–7)

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ
حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ
بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ
فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7)

غريب الكلمات:

وُجْدِكُمْ: أي: سَعَتِكم ومَقدِرَتِكم، والوُجْدُ: المَقدِرةُ والسَّعَةُ.

وَلَا تُضَارُّوهُنَّ: أي: ولا تُؤذُوهنَّ، وأصلُ (ضرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النَّفعِ.

وَأْتَمِرُوا: أي: لِيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ صاحِبَه بخَيرٍ، أو: تَشاوَرُوا، والائتِمارُ: التَّشاوُرُ والتَّداوُلُ في النَّظَرِ، وأصلُه مُطاوِعُ: أَمَرَه؛ لأنَّ المُتشاوِرِينَ يأمُرُ أحدُهما الآخَرَ، فيَأْتَمِرُ الآخَرُ بما أمَرَه.

تَعَاسَرْتُمْ: أي: اشتَدَّ الخِلافُ بَيْنَكم، ولم تَرجِعوا إلى وِفاقٍ، والتَّعاسُرُ: صُدورُ العُسرِ مِن الجانِبَينِ، وهو تَفاعُلٌ، مِن قَولِهم: عَسَرْتُ فُلانًا: إذا أخَذْتَه على عُسْرِه، ويُقالُ: تعاسَرَ البَيِّعانِ: إذا لم يتَّفِقا، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ.

سَعَةٍ: أي: طاقةٍ وقُدرةٍ وغِنًى، والسَّعَةُ: هي الجِدَةُ مِنَ المالِ أو الرِّزقِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ.

قُدِرَ: أي: ضُيِّق وقُتِّر، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه.

تفسير الآيتين:

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (6).

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ.

أي: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ في المكانِ الَّذي تَسكُنونَ فيه مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم، وتيسَّرَ وُجودُه لكم إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ.[26]

وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ.

أي: ولا تَضُرُّوهنَّ -أيُّها الأزواجُ- بأيِّ ضَرَرٍ؛ مِن أجلِ أن تُضَيِّقوا عليهِنَّ في مَسكَنِكم، فتَضطَرُّوهنَّ للخُروجِ منه قَبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ.

---

(26) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٣٣): «أمر الله تعالى بإسكان المطلَّقات، ولا خلاف في التي لم تُبَتّ، وأما المبتوتة، فمالك؟ يَرى لها السُّكنى لِمكان حِفظ النّسب، ولا يَرى لها نَفقة؛ لأنّ النّفقة بإزاء الاستمتاع.

وهو قول الأوزاعي، والشافعي، وابن أبي ليلى، وأبي عبيد، وابن المسيّب، وعطاء، والشعبي، وسليمان بن يَسار.

وقال أصحاب الرأي والثوري: لها السّكنى والنّفقة.

وقال جماعة من العلماء: ليس لها سُكنى ولا نفقة».

وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ.

أي: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حوامِلَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهِيَ عِدَّتُهنَّ بوِلادتِهنَّ.(27)

فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ.

أي: فإنْ أرضَعَ نِساؤُكم المطلَّقاتُ أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ.

---

(27) لخَّصَ ابنُ كثير (١٤/ ٤٠) الخلاف في قوله تعالى: ﴿وإنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، فقال:

«قال كثير من العلماء -منهم ابن عباس، وطائفة من السلف، وجماعات من الخلف-: هذه في البائن، إن كانت حاملًا أنفق عليها حتى تضع حملها، قالوا: بدليل أنّ الرّجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملًا أو حائلًا.

وقال آخرون: بل السياق كلّه في الرّجعيات، وإنما نصّ على وجوب الإنفاق على الحامل، وإن كانت رجعية؛ لأنّ الحمْل تطول مدته غالبًا فاحتيج إلى النصّ على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يُتوهّم أنه إنما تجب النّفقة بمقدار مدة العِدّة».

وظاهر كلام ابن جرير (٢٣/ ٦٤) أنه رجَّحَ القولَ الأوَّلَ -استنادًا إلى السنة، والدلالة العقلية- حيث قال: «الصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملًا؛ لأنّ الله -جلّ ثناؤه- جعل النفقة بقوله: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن﴾ للحوامل دون غيرهنّ من البائنات من أزواجهنّ، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنّ من النّفقة على أزواجهنّ سواء، لم يكن لخصوص أُولات الأحمال بالذّكر في هذا الموضع وجه مفهوم؛ إذ هنّ وغيرهنّ في ذلك سواء، وفي خصوصهنّ بالذكر دون غيرهنّ أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملًا.

وبالذي قلنا في ذلك صحَّ الخبرُ عن رسول الله - ﷺ -».وقال ابنُ عطية (٨/ ٣٣٣): «أما الحامل فلا خلاف في وجوب سُكناها ونفقتها؛ بُتَّت أو لم تُبتَّ؛ لأنها مُبيّنة في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المُتوفّى عنها زوجها على قولين لعلماء الأمة: فمَنعها قوم، وأوجبها في التركة قوم».

قال ابنُ تيمية (٦/ ٣٣٠): «هذه الآية توجب رِزق المُرتَضع على أبيه؛ لقوله: ﴿وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾، فأوجبَ نفقته حملًا ورضيعًا بواسطة الإنفاق على الحامل والمرضع؛ فإنه لا يمكن رزقه بدون رزق حامله ومرضعه».

وقال (٦/ ٣٣١): «ليس في كتاب الله إجارة منصوص عليها في شريعتنا إلا هذه الإجارة، كما قال تعالى: ﴿فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن﴾، وقال: ﴿وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف﴾ [البقرة: ٢٣٣].

والسنة وإجماع الأمة دلّا على جوازها، وإنما تكون مُخالِفة للقياس لو عارضها قياس نص آخر، وليس في سائر النصوص وأقيستها ما يناقض هذه».

وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ.

أي: ولْيَتَشاوَرْ كلٌّ مِنَ الزَّوجِ ومُطلَّقتِه، ويأمُرْ بَعضُهم بعضًا بما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، بلا ضررٍ ولا ضِرارٍ، ويَقبَلوا ذلك، ويَعمَلوا به، فلا يُقَصِّرُ الوالِدُ في النَّفَقةِ، ولا تُقَصِّرُ المُرضِعةُ في القيامِ بشَأنِ الرَّضيعِ.

وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى.

أي: وإن اختَلَفَ الزَّوجُ ومُطَلَّقتُه في شأنِ رَضاعِ وَلَدِها منه، فلم يتَّفِقَا على الأُجرةِ أو امتَنَعَت الأمُّ عنَ الرَّضاعِ، فلا تُكرَهُ على إرضاعِه، ولْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (7).

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ.

أي: على مَن وَسَّعَ اللهُ عليه أن يُوَسِّعَ في النَّفَقةِ على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ.

وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ.

أي: ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ ممَّا أعطاه اللهُ مِنَ الرِّزقِ، على قَدْرِ مالِه.

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا.

أي: لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا مِن النَّفَقةِ الواجِبةِ عليه إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه مِنَ الرِّزقِ؛ كُلٌّ بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ، فلا يُكَلِّفُ اللهُ الفَقيرَ أن يُنفِقَ مِثلَ نَفَقةِ الغَنيِّ.

قال تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا [البقرة: 286].

سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا.

أي: سيَجعَلُ اللهُ للفَقيرِ بعدَ الفَقرِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً.

قال تعالى: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ [البقرة: 268].

وقال سبحانه: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: 5، 6].

سُورةُ الطَّلاقِ

الآيات (8-12)

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا
(8) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ
يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ
مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا
(11) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12)

غريب الكلمات:

وَكَأَيِّنْ: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مركَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ.

عَتَتْ: أي: تكَبَّرت، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على الاستِكبارِ.

نُكْرًا: أي: مُنكَرًا فَظيعًا، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القَلبُ.

وَبَالَ أَمْرِهَا: أي: جزاءَ ذَنْبِها، وعاقِبةَ ما عمِلتْ، أو ثقلَ عاقبةِ أمرِها، والوَبالُ: الوخامةُ، وسوءُ العاقبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّعٍ.

عَاقِبَةُ: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ -كما هنا-، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه.

خُسْرًا: أي: هَلاكًا وخُسْرانًا، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على النَّقصِ.

الْأَلْبَابِ: أي: العُقولِ، وأصْلُ (لبب) هنا: يدُلُّ على الخُلُوصِ والجَودةِ.

تفسير الآيات:

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا

(8).

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الأحكامَ والمواعِظَ، والتَّرغيبَ لِمن أطاع؛ حذَّر مَن خالَفَ، فقال تعالى:

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا.

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي طغى أهلُها، فتَجاوَزوا أمْرَ اللهِ ورُسُلِه، وخالَفوا شَرْعَه، وتعَدَّوا حُدودَه، وبالَغوا في مَعصيتِه؛ فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا أحصى عليهم فيه جميعَ ذُنوبِهم، فلم يَعْفُ لهم عن شَيءٍ منها![28]

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: 17].

---

(28) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٣٥ بتصرف): «قوله تعالى: ﴿فحاسبناها﴾ قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أي: ثَمَّ هو الحساب والتعذيب والذوق وخسار العاقبة.

وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى: ﴿فَحاسَبْناها حِسابًا شَدِيدًا﴾ أي: لم نغتفر لها زَلة بل أُخِذتْ بالدقائق من الذنوب، وقوله تعالى: ﴿أعد الله لهم عذابًا شديدًا﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خُسران عاقبتهم، فيتأيّد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا».

وقال سبحانه: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ [القصص: 58، 59].

وقال تبارك وتعالى: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ [محمد: 13].

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا.

أي: وعذَّبْناهم عَذابًا عَظيمًا فَظيعًا مُنكَرًا.

قال تعالى حكايةً عن ذي القرنَين: قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا [الكهف: 87].

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (9).

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا.

أي: فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ؛ لِعُتُوِّهم عن أمرِ اللهِ ورُسُلِه.

وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا.

أي: وكان آخِرُ أمْرِهم الخَسارةَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (10).

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا.

أي: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه -يا أصحابَ العُقولِ الصَّافيةِ والأفهامِ المُستَقيمةِ، الَّذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه-، ولا تكونُوا مِثلَ كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلَكَهم.

قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا.

أي: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ الَّذي يُذَكِّرُكم اللهُ به، ويُنَبِّهُكم على الإيمانِ باللهِ، والقيامِ بطاعتِه.[29]

---

(29) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٣٥) اختلاف أهل التأويل في المَعْنِيّ بـ «الذّكر»، و«الرسول» في هذا الموضع، فقال: «قال قوم من المتأولين: المراد بالاسمين القرآن، و﴿رسولًا﴾ يعني: رسالة، وذلك موجود في كلام العرب.
وقال آخرون: ﴿رسولًا﴾ نعت أو كالنعت لقوله سبحانه: ﴿ذكرًا﴾، فالمعنى: ذكرًا ذا رسولٍ.
وقيل: الرسول ترجمة عن الذّكر كأنه بدل منه.
وقال آخرون: المراد بهما جميعًا: محمد - ﷺ -، والمعنى: ذا ذِكْرٍ رسولًا.

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (11).

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه مُحَمَّدًا يَتلو عليكم –أيُّها المؤمِنونَ– آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ على نحوٍ لا لَبْسَ فيه.

وقال بعض حُذّاق المتأولين: الذّكر: اسم من أسماء الرسول – ﷺ –.

واحتجَّ بهذا القاضي أبو بكر الباقلاني في تأويل قوله تعالى: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ [الأنبياء: ٢].

وقال بعض النحاة: معنى الآية: ذِكرًا بعث رسولًا، فهو منصوب بإضمار فعل.

وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون ﴿رسولًا﴾ معمولًا للمصدر الذي هو الذّكر».

وذهبَ ابنُ جرير (٢٣/ ٧٦) –مستندًا إلى اللغة– إلى أنّ الرسول تفسير للذّكر، فقال: «الصواب من القول في ذلك أنّ الرسول ترجمة عن الذّكر، ولذلك نُصِب؛ لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة.

فتأويل الكلام إذن: قد أنزل الله إليكم –يا أولي الألباب– ذكرًا من الله لكم يذكركم به، ويُنبّهكم على حظّكم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته، رسولًا يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه مبينات لمن سمعها وتدبّرها أنها من عند الله».

وذهب ابنُ عطية (٨/ ٣٣٦) إلى أنّ المراد بالذّكر: القرآن، والمراد بالرسول: محمد – ﷺ –، فقال: «أبْيَن الأقوال عندي معنًى أن يكون الذّكر: القرآن، والرسول: محمدًا – ﷺ –، والمعنى: بعث رسولًا، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحا هذا المنحى السُّدّيّ».

ولم يذكر مستندًا.

وهو ظاهر كلام ابن كثير (١٤/ ٤٣).

كما قال تعالى: وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [النحل: 89].

لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

أي: ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعصيةِ إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ.

كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [إبراهيم: 1].

وقال سبحانه: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الشورى: 52].

وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ووَفْقًا لشَرعِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلُه في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تجري الأنهارُ مِن تحتِ أشجارِها، وقُصورِها.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا.

أي: ماكِثينَ في تلك الجنَّاتِ أبدًا، فلا يموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها.

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا.

أي: قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها، وطيَّبه لهم.

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (12).

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ مِنَ العَدَمِ بقُدْرتِه التَّامَّةِ سَبْعَ سَمواتٍ.[30]

كما قال تعالى: ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ [البقرة: 29].

(30) قال ابن عطية (٨/ ٣٣٦ – ٣٣٧): «لا خلاف بين العلماء أنّ السموات سبع؛ لأن الله تعالى قال: ﴿سبع سموات طباقًا﴾ [الملك: ٣]، وقد فسّر رسول الله – ﷺ – أمرهن في حديث الإسراء، وقال – ﷺ – لسعد – رضي الله عنهما – : «حكمتَ بحكم الملك من فوق سبع أرقعة».
ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع.
وأما» الأرض «فالجمهور على أنها سبع أرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأن المماثلة إنما هي في العدد، ويُستدل بقول رسول الله – ﷺ –: «مَن غصب شبرًا من أرض طُوّقه من سبع أرضين».
إلى غير هذا مما وردت به روايات، ورُوي عن قوم من العلماء أنهم قالوا: الأرض واحدة، وهي مماثلة لكل سماء بانفرادها في ارتفاع جِرمها، وفي أن فيها عالمًا يعبُد كما في كل سماء عالم يعبُد».
وقال ابنُ كثير (١٤/ ٤٤): «ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النّجعة، وأغرق في النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند».

وقال سبحانه: الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا [الملك: 3].

وقال عزَّ وجلَّ: فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [فصلت: 12].

وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ.

أي: وخَلَقَ اللهُ مِنَ الأرضِ مِثلَ عَدَدِ السَّمَواتِ، فجعَلَهنَّ سَبْعَ أَرَضينَ.

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((لا يأخُذُ أحَدٌ شِبرًا من الأرضِ بغَيرِ حَقِّه إلَّا طَوَّقَه اللهُ إلى سَبْعِ أرَضِينَ يومَ القيامةِ)).[31]

يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ.

أي: يتنزَّلُ أمرُ اللهِ بيْنَ السَّمَواتِ والأَرَضِينَ.

(31) رواه مسلم (1611).

لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

أي: إنَّ الغايةَ المقصودةَ مِن الخَلقِ والأمرِ هي أن يَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه؛ فهو بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ؛ فيَعبُدوه العِبادةَ الجامِعةَ لخَشيتِه ورَجائِه، والذُّلِّ والإخلاصِ له، وتَعظيمِه ومحَبَّتِه.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ التَّحرِيمِ

سُورةُ التَّحريم

سورةُ التَّحريمِ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّحريم).[32]

سورةُ التَّحريمِ مَدَنيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ.[33]

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

بَيانُ مَعالِمَ وهداياتٍ تتعلَّقُ بالأُسرةِ.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- حِكايةُ جانبٍ مِمَّا دار بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعضِ زَوجاتِه، وعتابُ اللهِ تعالى له، وعِتابُ الأزواجِ الطَّاهِراتِ، ودفاعُ اللهِ عن نبيِّه.

---

(32) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِه تعالى: لِمَ تُحَرِّمُ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (471/1).

(33) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقُرطبيُّ، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (38/6)، ((تفسير ابن عطية)) (302/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (304/4)، ((تفسير القرطبي)) (177/18)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (99/3).

2- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمِنينَ، وأمْرُهم بوقايةِ أنفُسِهم وأهليهم مِن جَهنَّمَ.

3- الأمرُ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، وبَيانُ آثارِها الحَسَنةِ مِن تكفيرِ السَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ.

4- الأمرُ بجِهادِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ.

5- خُتِمت السُّورةُ بضَربِ مَثَلينِ؛ أحَدُهما للَّذين آمنوا، ويَتمَثَّلُ في امرأةِ فِرعَونَ وفي مَريمَ ابنةِ عِمْرانَ، والآخَرُ للَّذين كَفَروا، ويتمثَّلُ في امرأةِ نُوحٍ وامرأةِ لُوطٍ عليهما السَّلامُ.

سورةُ التَّحريمِ

الآيات (1–5)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1) قَدْ
فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ
أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا
بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا
وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ
(4) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ
عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5)

غريب الكلمات:

فَرَضَ: أي: بيَّن وشَرَع، وقيل: أوجَبَ، والفَرضُ: قَطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، والفَرضُ كالإيجابِ، لكِنَّ الإيجابَ يُقالُ اعتِبارًا بوُقوعِه وثباتِه، والفَرضَ بقَطعِ الحُكمِ فيه.

تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ: أي: كفَّارتَها؛ لأنَّ عُقدةَ اليمينِ تنحَلُّ بها، أو لأنَّه يتحَلَّلُ بها عن اليمينِ أي: يخرجُ، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ، والأَيْمانُ جَمْعُ يمينٍ، وهو: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا –وهو اسمُ اليَدِ– ؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أو تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ.

مَوْلَاكُمْ: أي: ناصِرُكم، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيث المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ.

صَغَتْ: أي: مالت عن الحَقِّ، وأصلُ (صغو): يدُلُّ على المَيلِ.

تَظَاهَرَا: أي: تَعاوَنَا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

ظَهِيرٌ: أي: مُساعِدون ومُعينونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ.

قَانِتَاتٍ: أي: مُطيعاتٍ خاضِعاتٍ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائِمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ.

سَائِحَاتٍ: أي: صائِماتٍ أو مُهاجِراتٍ، قيل: سُمِّيَ الصِّيامُ سياحةً؛ تشبيهًا بالسَّائحِ الَّذي لا زاد معه، وأصلُ (سيح): يدُلُّ على استِمرارِ شَيءٍ وذَهابِه.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ – ﷺ –كان يَمكُثُ عندَ زَينبَ بنتِ جحشٍ فيَشرَبُ عِندَها عَسَلًا، فتواطَأتُ أنا وحَفصةُ أنَّ أيَّتَنا ما دَخَل عليها النَّبيُّ – ﷺ –فلْتَقُلْ: إنِّي أَجِدُ منك رِيحَ مَغافيرَ، أكَلْتَ مَغافيرَ؟![34] فدَخَل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شَرِبتُ عَسَلًا عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ، ولن أعودَ له، فنَزَل: لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إلى قَولِه: إِنْ تَتُوبَا لعائِشةَ وحَفْصة وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا [التحريم: 3]؛ لِقَولِه: بل شَرِبتُ عَسَلًا)).[35]

---

(34) مَغافير: جمعُ مُغْفورٍ، وهو صَمْغٌ حُلْوٌ له رائِحةٌ كَريهةٌ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (377/9).
قال الألوسي: (وكان صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم يحِبُّ الطِّيبَ جدًّا، ويكرهُ الرَّائحةَ الكريهةَ؛ للطافةِ نفسِه الشَّريفةَ، ولأنَّ المَلَكَ يأتيه وهو يكرهُها، فشقَّ عليه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ما قيل، فجرَى ما جرَى).
((تفسير الألوسي)) (14/ 342).
(35) رواه البخاريُّ (4912)، ومسلمٌ (1474) واللَّفظُ له.

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم تَزَلْ به عائِشةُ وحَفصةُ حتَّى حَرَّمَها على نَفْسِه، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إلى آخِرِ الآيةِ)).(36)

---

(36) أخرجه النسائيُّ (3959) واللَّفظُ له، والحاكمُ (3824)، والبيهقيُّ (15472).

صحَّحه الحاكِمُ، وقال: (على شرطِ مُسلِمٍ)، والوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (253)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (288/9)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (278/3)، والشوكاني في ((الدراري المضية)) (225)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (3959).

ممَّن رجَّح أنَّ سَبَب النُّزولِ هو قِصَّةُ الجارية: ابنُ عطيَّة، وابنُ حجر، والقاسميُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (330/5)، ((فتح الباري)) لابن حجر (290/9)، ((تفسير القاسمي)) (268/9).

ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (1038/2).

قال ابن عطية: (القولُ الأوَّلُ أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ مارية: أصَحُّ وأوضَحُ، وعليه تفقَّهَ النَّاسُ في الآيةِ).

((تفسير ابن عطية)) (330/5).

وقال ابن حجر: (الرَّاجِحُ مِن الأقوالِ كُلِّها قِصَّةُ مارية؛ لاختِصاصِ عائِشةَ وحَفصةَ بها، بخِلافِ العَسَلِ؛ فإنَّه اجتمَع فيه جماعةٌ مِنهنَّ، ويحتَمِلُ أن تكونَ الأسبابُ جميعُها اجتمعت، فأُشيرَ إلى أهمِّها، ويؤيِّده شُمولُ الحَلِفِ للجَميعِ).

((فتح الباري)) (290/9).

وقال القاسمي: (الَّذي يَظهَرُ لي هو ترجيحُ رواياتِ تحريمِ الجاريةِ في سَبَبِ نُزولِها).

ثمَّ ذكر وُجوهَ ترجيحِ هذا القولِ.

يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (268/9).

ورجَّح ابنُ العَرَبي، والقرطبيُّ، والنوويُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ قِصَّةِ العَسَلِ.

يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (294/4)، ((تفسير القرطبي)) (179/18)، ((شرح النووي على مسلم)) (77/10)، ((تفسير ابن كثير)) (160/8)، ((تفسير ابن عاشور)) (344/28).

قال ابنُ كثير: (قد يُقالُ: إنَّهما واقِعتانِ، ولا بُعْدَ في ذلك، إلَّا أنَّ كَونَهما سببًا لنُزولِ هذه الآيةِ فيه نظَرٌ. واللهُ أعلَمُ).

((تفسير ابن كثير)) (162/8).

وقال الشوكاني: (هذان سَبَبانِ صَحيحانِ لِنُزولِ الآيةِ، والجمعُ مُمكِنٌ بُوقوعِ القِصَّتَين: قِصَّةِ العَسَلِ، وقِصَّةِ مارية، وأنَّ القُرآنَ نَزَل فيهما جميعًا، وفي كُلِّ واحدٍ منهما أنَّه أسَرَّ الحَديثَ إلى بَعضِ أزواجِه).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُلتَمِسًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك؟(37)

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ [المائدة: 87].

((تفسير الشوكاني)) (300/5).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (657/8).

(37) اختُلف فيما حَرّمه الرسول على نفسه ابتغاء مرضاة أزواجه على أقوال: الأول: أنه حَرّم مارية مملوكته القِبْطيّة، على نفسه بيمين إرضاء لزوجه حفصة بنت عمر.

الثاني: أنه عسل شربه النبي - ﷺ - عند بعض نسائه.

الثالث: أنه حَرّم المرأة التي وهبتْ نفسها له.

ورجّح ابنُ جرير (٢٣/ ٨٩) العموم، فقال: «والصواب من القول في ذلك أن يُقال: كان الذي حَرّمه النبي - ﷺ - على نفسه شيئًا كان الله قد أحلّه له، وجائز أن يكون ذلك كان جاريته، وجائز أن يكون كان شرابًا من الأشربة، وجائز أن يكون غير ذلك.

غير أنه أي ذلك كان فإنه تحريم شيء كان له حلالًا، فعاتبه الله على تحريمه على نفسه ما كان قد أحلّه، وبَيّن له تَحِلة يمينه في يمين كان حَلف بها مع تحريمه ما حَرّم على نفسه».

ورجَّح ابنُ عطية (٨/ ٣٤٠) القول الأول الذي قاله زيد بن أسلم، وابن زيد، والضَّحّاك، والشعبي وغيرهم، فقال: «والقول الأول أنّ الآية نَزَلَتْ بسبب مارية أصح وأوضح، وعليه تفقّه الناس في الآية».

وانتقد ابنُ كثير (١٤/ ٥٠) القول الثالث الذي قاله عكرمة، ورجَّح القول الثاني الذي قاله ابن أبي مُلَيْكة، وعبد الله بن شَدّاد بن الهاد، فقال: «وهذا قول غريب، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما قال البخاري».

وساق الحديث الوارد عن عائشة في نزول الآيات.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم، وقد غَفَر لك –يا مُحمَّدُ– تحريمَك على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك، ورَحِمك.

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (2).

قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ.

أي: قد بيَّن اللهُ لكم تحليلَ جَميعِ أيْمانِكم –إذا أحبَبْتُم استِباحةَ المحلوفِ عليه– بالكَفَّارةِ الَّتي شَرَعها وبَيَّنَها لكم مِن قَبْلُ في سورةِ المائِدةِ.

كما قال تعالى: لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [المائدة: 89].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((إنِّي واللهِ –إن شاء اللهُ– لا أحلِفُ على يمينٍ، فأرى غيرَها خيرًا منها، إلَّا أتيتُ الَّذي هو خيرٌ وتحلَّلْتُها)).[38]

(38) رواه البخاريُّ (7555)، ومسلمٌ (1649).

وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ.

أي: واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم –أيُّها المؤمنونَ– ويتوَلَّى أُمورَكم بما فيه صَلاحُكم.

وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أي: واللهُ هو البالغُ العِلمِ بمَصالِحِ عِبادِه وغَيرِها، الحَكيمُ في خَلْقِه وشَرْعِه، وقَدَرِه وتَدبيرِ عِبادِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ فلذلك شَرَع لكم مِنَ الأحكامِ ما هو مُوافِقٌ لمصالِحِكم، ومُناسِبٌ لأحوالِكم.

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3).

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا.

أي: واذكُرْ حينَ أخفى النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى زَوجتِه حَفْصةَ كلامًا –وهو تحريمُ ما حرَّمه على نفْسِه– وأمَرَها ألَّا تُخبِرَ به أحدًا.

فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ.

أي: فلمَّا أخبرَت حَفْصةُ عائِشةَ بما أسَرَّ إليها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تحريمِه ما حرَّم على نَفْسِه، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وترَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا.

فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا.

أي: فلمَّا أخبرَ نَبيُّ اللهِ حَفْصةَ بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ مُتعَجِّبةً مِن مَعرِفتِه: مَنْ أخبرَك بذلك؟!

قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.

أي: قال لها النَّبيُّ – ﷺ –: أخبرَني بذلك العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، الخَبيرُ الَّذي لا تَخفى عليه خافِيةٌ.

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4).

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا.

أي: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ –يا حَفصةُ وعائِشةُ– فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ والصَّوابِ، وعمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ، وحُبِّ ما يُحبُّه، وكراهةِ ما يَكرَهُه.

وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: وإنْ تَتعاوَنا –يا حَفصةُ وعائِشةُ– على إيذاءِ رَسولِ اللهِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ –كأبي بَكرٍ وعُمَرَ– أولياءُ له أيضًا يَتولَّونَه ويَنصُرونَه؛ فلا يَضُرُّ الرَّسولَ تعاوُنُكما عليه![39]

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (مَكثْتُ سَنةً أُريدُ أن أسأَلَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ عن آيةٍ، فما أستطيعُ أن أسأَلَه؛ هَيْبةً له، حتَّى خَرَج حاجًّا فخَرَجتُ معه، فلمَّا رَجَعْنا وكُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ عَدَل إلى

---

(39) اختُلف في المراد بصالح المؤمنين على أقوال: الأول: أنهما أبو بكر، وعمر.

الثاني: أنهم الأنبياء.

الثالث: أبو بكر.

الرابع: عمر.

الخامس: علي بن أبي طالب.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ٩٨) العموم، وأنه يدخل في الآية كلّ صالح، فقال: «والصواب من القول في ذلك عندي: أنّ قوله: ﴿وصالح المؤمنين﴾ وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو بمعنى قوله: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ [العصر: ٢]، فالإنسان وإن كان في لفظ واحد فإنه بمعنى الجميع، وهو نظير قول الرجل: لا يقريني إلا قارئ القرآن، يقال: قارئ القرآن، وإن كان في اللفظ واحدًا فمعناه الجمع؛ لأنه قد أذن لكل قارئ القرآن أن يقريه، واحدًا كان أو جماعة».

وكذا رجَّحه ابنُ تيمية (٦/ ٣٤٥) مستندًا إلى النظائر، فقال: «قوله: ﴿وصالح المؤمنين﴾ يعمّ كلَّ صالح مِن المؤمنين كما في الصحيحين عن النبي أنه قال: «إنّ آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، إنما وليي الله وصالح المؤمنين»».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٣) أنّ قوله تعالى: ﴿وصالح المؤمنين﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون اسم جنس مفردًا.

الثاني: أن يريد «وصالحو» فحُذفت «الواو» في خطّ المصحف، كما حُذِفَت في قوله: ﴿سندع الزبانية﴾ [العلق: ١٨] وغير ذلك.

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٣) أنّ قوله تعالى: ﴿وجبريل وصالح المؤمنين﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون عطفًا على اسم الله تعالى في قوله: (هو)، فيكون جبريل وصالح المؤمنين في الولاية.

الثاني: أن يكون (جبريل) رفعًا بالابتداء، وما بعده عطف عليه، و﴿ظهير﴾ الخبر، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية، ويختص بأنه مولى الله؟.

الأراكِ لحاجةٍ له، فوقَفْتُ له حتَّى فرَغ، ثمَّ سِرتُ معه، فقُلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، مَنِ اللَّتانِ تَظاهرَتا على النَّبيِّ - ﷺ - مِن أزواجِه؟ فقال: تلك حَفصةُ وعائِشةُ).[40]

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ.

أي: والمَلائِكةُ مع نَصرِ اللهِ وجِبريلَ وصالحِ المُؤمِنينَ أعوانٌ أيضًا لرَسولِ اللهِ - ﷺ - على مَن يُريدُ أذاه ومَساءتَه.

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (5).

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ.

أي: عسى ربُّ محمَّدٍ إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا أفضَلَ مِنكُنَّ.

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتمَع نِساءُ النَّبيِّ - ﷺ - في الغَيرةِ عليه، فقُلتُ لهُنَّ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ، فنزَلَت هذه الآيةُ).

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال عُمَرُ: (وافَقتُ اللهَ في ثلاثٍ، أو وافَقَني رَبِّي في ثلاثٍ؛ قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، لو اتَّخَذتَ مَقامَ إبراهيمَ مُصَلًّى. وقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ؛ فلو

(40) رواه البخاريُّ (4913) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (1479).

أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمنينَ بالحِجابِ، فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ. قال: وبلَغَني مُعاتَبةُ النَّبيِّ - ﷺ - بَعضَ نِسائِه، فدَخَلْتُ عليهِنَّ، قُلتُ: إنِ انتَهَيتُنَّ أو لَيُبدِّلَنَّ اللهُ رَسولَه - ﷺ - خيرًا مِنكنَّ! حتَّى أتيتُ إحدى نِسائِه، قالت: يا عُمَرُ، أمَا في رَسولِ اللهِ - ﷺ - ما يَعِظُ نِساءَه حتَّى تَعِظَهنَّ أنت؟! فأنزل اللهُ: عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ الآيةَ).[41]

مُسْلِمَاتٍ.

أي: مُخلِصاتٍ للهِ، خاضِعاتٍ لطاعتِه، قائماتٍ بالشَّرائعِ الظَّاهرةِ.

مُؤْمِنَاتٍ.

أي: قائماتٍ بالشَّرائعِ الباطنةِ مِنَ العَقائِدِ الصَّحيحةِ وأعمالِ القُلوبِ.

قَانِتَاتٍ.

أي: مُطيعاتٍ للهِ ورَسولِه على الدَّوامِ، قائِماتٍ بها أحسَنَ قِيامٍ.

قال الله تبارك وتعالى: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ [النساء: 34].

تَائِبَاتٍ.

أي: مُقلِعاتٍ عن الذُّنوبِ إذا وقَعْنَ فيها.

---

(41) رواه البخاري (4483).

عَابِدَاتٍ.

أي: مُتذَلِّلاتٍ للهِ بعِبادتِه.

سَائِحَاتٍ.

أي: صائِماتٍ.(42)

ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا.

أي: بَعضُهنَّ ثَيِّباتٌ قد تزَوَّجْنَ مِن قَبلُ، وبَعضُهنَّ أبكارٌ عَذارَى لم يتزوَّجْنَ مِن قَبلُ.

(42) اختُلف في المراد بالسائحات على قولين: الأول: أنهن الصائمات: الثاني: المُهاجرات.

ووجّه ابنُ عطية (٨/ ٣٤٤) القول الأول الذي قاله ابن عباس، وعكرمة، وعطاء، وأبو مالك، وقتادة، والضَّحّاك، ومقاتل، بقوله: «وشبه الصائم بالسائح من حيث يَنهمك السائح ولا ينظر في زادٍ ولا مطعم، وكذلك الصائم يُمسك عن ذلك؛ فيستوي هو والسائح في الامتناع وشَظف العيش بفقد الطعام».

وبنحوه قال ابنُ جرير (٢٣/ ١٠٢).

وذكر ابنُ كثير (١٤/ ٥٧) أن القول الأول ورد فيه حديث: «سياحة هذه الأمة الصيام».

ورجّحه بقوله: «والقول الأول أولى».

سورةُ التَّحريمِ

الآيات (6–9)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ
شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا
الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى
رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ
النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ
لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (8) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ
وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9)

غريب الكلمات:

نَصُوحًا: أي صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ، يَنوي التَّائبُ فيها عَدَمَ مُعاوَدةِ المعصيةِ، وأصلُ (نصح): يدُلُّ على مُلاءَمةٍ بيْن شَيئَينِ وإصلاحٍ لهما.

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (6).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا.

أي: يا أيُّها الَّذين آمنوا اجعَلوا بيْن أنفُسِكم وأهليكم وبيْن النَّارِ حاجِزًا يَقيكم منها؛ بتَعليمِ أنفُسِكم العِلمَ النَّافِعَ، وقيامِكم بالعَمَلِ الصَّالِحِ، وتعليمِ أهليكم وتأديبِهم، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المُنكَرِ.

كما قال تعالى: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا [طه: 132].

وقال سُبحانَه: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء: 214].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ [الأحزاب: 59].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ – ﷺ – أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّتِه؛ فالأميرُ الَّذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مَسؤولٌ

عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه، وهي مَسؤولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه)).[43]

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَ علَيَّ النَّبيُّ – ﷺ – وفي البَيتِ قِرامٌ[44] فيه صُوَرٌ، فتلَوَّنَ وَجْهُه، ثمَّ تناوَلَ السِّتْرَ فهتَكَه![45] وقالت: قال النَّبيُّ – ﷺ –: إنَّ مِن أشَدِّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ الَّذين يُصوِّرونَ هذه الصُّوَرَ)).[46]

وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ.

أي: حَطَبُ النَّارِ الَّذي يُلقَى فيها فتُوقَدُ به: هو الكُفَّارُ والحِجارةُ.

كما قال تعالى: فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ [البقرة: 24].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ [آل عمران: 10].

وقال تعالى: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ [الأنبياء: 98].

---

(43) رواه البخاريُّ (7138)، ومسلمٌ (1829) واللَّفظُ له.

(44) قِرامٌ: أي: سِتْرٌ.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (9/67).

(45) فهَتَكه: أي: جذَبه فقطَعَه.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (9/67).

(46) رواه البخاريُّ (6109) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2107).

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا [الجن: 15].

عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ.

أي: على النَّارِ مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بالعَذابِ، غِلاظٌ لا يَرحَمونَ، شِدادٌ أقوِياءُ![47]

كما قال الله تبارك وتعالى: عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً [المدثر: 30، 31].

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ.

أي: لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ الَّذي يأمُرُهم به، ولا يمتَنِعونَ عن طاعتِه.

وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

أي: ويَفعَلونَ كُلَّ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه؛ فهم قادِرونَ على تَنفيذِه.

---

(47) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٥) أن «الشدة»: القوة.
ثم بيّن أنه قيل: المراد شدتهم على الكفار.
وعلّق بقوله: «فهي بمعنى: الغلظة».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (7).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ.

أي: يُقالُ لأهلِ النَّارِ في الآخِرةِ: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تعتَذِروا في هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- عن كُفرِكم؛ فقد فات وقتُ قَبولِ الاعتِذارِ، وزالَ نَفعُه!

قال تعالى: فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ [الروم: 57].

وقال سُبحانَه: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ [غافر: 52].

إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّما تَنالونَ اليَومَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وقد نُهيتُم عنها؛ فلا تَعتَذِروا عن أعمالِكم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(8).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن جميعِ ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً بنِيَّةٍ خالِصةٍ، مع إقلاعٍ عنها، ونَدَمٍ عليها، وعَزمٍ على عَدَمِ العَودةِ إليها.[48]

عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ.

أي: عسى اللهُ إنْ تُبتُم توبةً نَصوحًا أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سُوءَها.

كما قال الله تعالى: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [النساء: 31].

(48) علَّق ابنُ القيم (٣/ ١٦٨) على تفسير السلف للتوبة النصوح، بقوله: «فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كلّ غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه.

والنّصح ضد الغشّ، وقد اختلفت عبارات السلف عنها، ومرجعها إلى شيء واحد».

وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: ويُدخِلَكم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها.

يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ.

أي: يومَ لا يُعذِّبُ اللهُ مُحمَّدًا والمُؤمِنينَ معه،(49) ولا يُهينُهم ولا يَفضَحُهم.

قال تعالى حكايةً عن قَولِ المؤمِنينَ: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ [آل عمران: 192 – 194].

وقال سُبحانَه وتعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ [الشعراء: 87].

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ.

أي: نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم.

---

(49) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٧) أنّ قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا معه﴾ يحتمل احتمالين: الأول: أن يكون معطوفًا على ﴿النَّبِيَّ﴾، فيخرج المؤمنون من الخزي.
الثاني: أن يكون ابتداء، و﴿نورهم يسعى﴾ جملة هي خبره، ويبقى النبي – ﷺ – مخصوصًا مُفضّلًا بأنه لا يخزى.

كما قال الله تبارك وتعالى: يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [الحديد: 12، 13].

يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا.

أي: يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمامِ.

وَاغْفِرْ لَنَا.

أي: وامْحُ ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها، وأزِلْ أثرَها.

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّك وَحدَك بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (9).

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ المحارِبينَ بالسَّيفِ، وغيرَ المحارِبينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعِظةِ، وجاهِدِ المُنافِقينَ بالسَّيفِ إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لِرَدِّ شُبُهاتِهم، أو بإقامةِ الحُدودِ على مَن يقَعُ فيها منهم، وكُنْ غليظًا على الكافِرينَ والمنافِقينَ بالقَولِ والفِعلِ.

كما قال تعالى: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ [البقرة: 193].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً [التوبة: 123].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ [الأنفال: 65].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان: 52].

وقال تبارك وتعالى: لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا [الأحزاب: 60، 61].

وقال جلَّ شأنُه: فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ [محمد: 4].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((ما مِن نَبِيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حَوارِيُّونَ[50] وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ،[51] يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤْمَرونَ؛ فمَنْ جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بِلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ)).[52]

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: ومَساكِنُ الكُفَّارِ والمنافِقينَ في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وهي مَثْواهم، وبِئسَ المرجِعُ الَّذي يَصيرونَ إليه جَهنَّمُ!

---

(50) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفياءُ.
وقيل: هم النَّاصِرونَ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (320/1).
(51) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ.
يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (320/1).
قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خَلْف» باسكانِ اللَّامِ، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّامِ فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ).
((شرح النووي على مسلم)) (28/2).
(52) رواه مسلم (50).

قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا [النساء: 140].

وقال سُبحانَه: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [التوبة: 68].

سورةُ التَّحريمِ

الآيات (10-12)

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ
فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ
مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ
وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا
فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12)

غريب الكلمات:

أَحْصَنَتْ: أي: حَفِظَت، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ.

الْقَانِتِينَ: أي: المُطيعينَ الخاضِعينَ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ.

تفسير الآيات:

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10).

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ.

أي: جعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ بالمؤمنِ، ومعاشرتَه له، وقُربَه منه؛ لا يُفيدُه شيئًا، ولا يَنفَعُه عندَ اللهِ![53]

كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا.

أي: كانت امرأةُ نُوحٍ وامرأةُ لُوطٍ زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وهما نوحٌ ولُوطٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فخانتاهما ولم يُؤْمِنا بِرِسالَتِهما، ويَتْبَعاهما على دينِهما!

فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا.

أي: فلم يَدفَعْ نُوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، ولم يَنفَعاهما؛ لكُفْرِهما.

---

(53) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٧ – ٣٤٨) أنّ هَذينِ المَثَلَيْن اللذان للكفار والمؤمنين معناهما: أنّ مَن كفر لا يغني عنه شيء، ولا ينفعه وزر، ولو كان متعلقًا بأقوى الأسباب، وأنّ مَن آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى، ولو كان في أسوأ مَنشأ وأخسر حال.

ثم نقل أنّ بعض الناس قال: إنّ في المَثَلَيْن عبرة لزوجات النبي – ﷺ –، حين تقدم عِتابهنّ.

وانتقده مستندًا لظاهر الآية، فقال: «وفي هذا بُعْد؛ لأنّ النص أنه للكفار يُبْعد هذا».

كما قال تعالى: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [عبس: 34 – 37].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ – حينَ أُنزِلَ عليه: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء: 214]: ((يا مَعشَرَ قُرَيشٍ اشتَرُوا أنفُسَكم مِنَ اللهِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا بَني عبدِ المُطَّلِبِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا عبَّاسُ بنَ عبدِ المطَّلِبِ لا أُغْني عنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا فاطِمةُ بِنتَ رَسولِ اللهِ سَلِيني بما شِئْتِ، لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا!)).[54]

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.

أي: وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها.

(54) رواه البخاريُّ (2753)، ومسلمٌ (206) واللَّفظُ له.

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11).

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ.

أي: وجَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه.

إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ.

أي: حينَ قالت امرأةُ فِرعَونَ: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بيتًا في الجنَّةِ.

عن سَلْمانَ الفارِسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت امرأةُ فِرعَونَ تُعذَّبُ بالشَّمسِ، فإذا انصرَفوا عنها أظلَّتْها الملائكةُ بأجنحَتِها، وكانت ترى بَيْتَها في الجنَّةِ).

وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ.

أي: وخَلِّصْني مِن صُحْبةِ فِرعَونَ وتَسلُّطِه، ومِن كُفْرِه وضَلالِه.

وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

أي: وخَلِّصْني مِن قومِ فِرعَونَ المُشرِكِينَ.

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (12).

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا.

أي: وضرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا مريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها.(55)

كما قال تعالى: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 91].

---

(55) ذكر ابن عطية (٨/ ٣٤٨) أنه اختُلف في الفَرْج الذي أحصنتْ مريم على قولين: الأول: أنه فَرْج الدّرع الذي كان عليها، وأنها كانت صَيّنة، وأن جبريل – عليه السلام –: نفخ فيها الروح من جَيْب الدّرع.

ونسبه للجمهور.

الثاني: أنه الفَرْج الجارحة.

ثم علّق بقوله: «ولفظة ﴿أحصنت﴾ –إذا كان فَرْج الجارحة– متمكنة حقيقة، والإحصان: صَونه، وهي فيه مستعملة، وإذا قدّرنا فَرْج الدرع فلفظة ﴿أحصنت﴾ مستعارة من حيث صانته، ومن حيث صار مسلكًا لولدها».

ثم قال (٨/ ٣٤٩): «وقوله تعالى: ﴿فنفخنا﴾ عبارة عن فعل جبريل حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أنّ النفخ فِعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلْقه واختراعه الولد في بطنها، وشبّه ذلك بالنفخ الذي من شأنه أن يسير في الشيء برفقٍ ولطف».

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٤٩) أنّ مَن قرأ: ﴿بكلمات﴾ بالجمع فإنه يُقوّي أنه يريد التوراة، ثم قال: «ويحتمل أن يريد أمر عيسى – عليه السلام –».

وبيّن أنّ مَن قرأ: ﴿كلمة﴾ بالإفراد فيقوي: أن يريد أمر عيسى – عليه السلام –، ويحتمل أن يريد أنه اسم جنس في التوراة.

وعن أبي مُوسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((لم يَكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلَّا مَريمُ بِنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ)).(56)

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها ((أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - دعا فاطِمةَ عامَ الفَتحِ فناجاها فبَكَت، ثمَّ حَدَّثَها فضَحِكَت! قالت: فلمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ - ﷺ - سألْتُها عن بُكائِها وضَحِكِها. قالت: أخبَرَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه سلَّم أنَّه يموتُ، فبَكَيتُ، ثمَّ أخبَرَني أنِّي سَيِّدةُ أهلِ الجنَّةِ إلَّا مَريمَ بِنتَ عِمرانَ، فضَحِكتُ)).(57)

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجنَّةِ: خَديجةُ بِنتُ خُوَيلدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمَّدٍ، وآسِيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ؛ امرأةُ فِرعَونَ، ومَريمُ ابنةُ عِمرانَ)).(58)

---

(56) رواه البخاريُّ (3433) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (2431).

(57) أخرجه الترمذيُّ (3893) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (8513).

قال الترمذي: (حسَنٌ غَريبٌ مِن هذا الوَجهِ).

وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذيِّ)) (3893).

(58) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (8355)، وأحمدُ (2668) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((الصحيح)) (7010)، والألباني فيُّ ((صحيح الجامع)) (1135)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (539/2)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (4/ 232)، وشعيبُ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (409/4)، وحسَّن إسنادَه النَّوويُّ في ((تهذيب الأسماء واللغات)) (341/2).

فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا.

أي: فنفخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ.

قال تعالى: وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا [مريم: 16، 17].

وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ.

أي: وآمَنَت مَريمُ بكَلِماتِ اللهِ، وآمَنَت بكُتُبِه، كالتَّوراةِ.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [آل عمران: 45].

وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ.

أي: وكانت مَريمُ مِن جُملةِ القَومِ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه.

قال تعالى: يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ [آل عمران: 43].

تَفْسِيرُ
سُورَةِ المُلْكِ

سورةُ المُلْكِ

سورةُ المُلْكِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بعِدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

1- سُورةُ المُلْكِ:[59] فعن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: (يُؤتَى الرَّجُلُ في قبرِه فتُؤتى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلْكِ...).[60]

2- سُورةُ تَبَارَكَ: فعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ تَبارَكَ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبْرِ)).[61]

---

(59) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لِمُفتَتَحِها به في قَولِه تعالى: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (473/1).

قال ابن عاشور: (الشَّائعُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وفي أكثرِ المصاحفِ تَسْميةُ هذه السُّورةِ «سورةَ المُلْكِ»).

((تفسير ابن عاشور)) (29/ 6).

(60) أخرجه الطَّبَرانيُّ (141/9) (8651)، والحاكمُ (3839) واللَّفظُ له، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (248/7).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن الأثرَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (1475)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (354/13)، وفي تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

قال شعيبٌ الأرناؤوط: (مِثلُ هذا لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأيِ، فيَكونُ له حُكمُ الرَّفعِ).

تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

(61) أخرجه أبو الشَّيخِ في ((طبقات المحدِّثين)) (11/4)، والشَّجَريُّ، كما في ((ترتيب الأمالي)) (569).

3- سُورةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ: فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ تَبارَكَ الَّذي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)).(62)

فضائل السورة وخصائصها:

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: (يُؤْتَى الرَّجُلُ في قبرِه، فتُؤتى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلكِ، ثمَّ يُؤتَى مِن قِبَلِ صدرِه أو قال بَطنِه، فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، ثمَّ يؤتَى رأسُه فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، قال: فهي المانِعةُ؛ تمنعُ مِن عذابِ القبرِ، وهي في التَّوراةِ سورةُ الملكِ، ومَن قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطنَبَ).(63)

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (3643)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

(62) أخرجه أبو داودَ (1400)، والترمذيُّ (2891)، وأحمدُ (7975).

قال الترمذي: (حسَنٌ)، وحسَّنه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (1474)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (13/ 353).

(63) أخرجه الطَّبَرانيُّ (141/9) (8651)، والحاكمُ (3839) واللَّفظُ له، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (248/7).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن الأثرَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (1475)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (354/13)، وفي تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

قال شعيبٌ الأرناؤوط: (مِثلُ هذا لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأيِ، فيكونُ له حُكمُ الرَّفعِ).

تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

وعن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ تَبَارَكَ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبرِ)).(64)

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سورةً مِن القُرآنِ ثلاثون آيةً شفعتْ لِرَجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)).(65)

سورةُ المُلْكِ مَكّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ.(66)

مِن أهمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ مُلْكِه الدَّالِّ على وَحدانيَّته.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- التَّعريفُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وانفرادِه بالمُلْكِ، وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

---

(64) أخرجه أبو الشَّيخ في ((طبقات المحَدِّثين)) (11/4)، والشَّجَريُّ، كما في ((ترتيب الأمالي)) (569).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (3643)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (68/3).

(65) أخرجه أبو داودَ (1400)، والترمذيُّ (2891)، وأحمدُ (7975).
قال الترمذي: (حسَنٌ)، وحسَّنه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (1474)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (13/ 353).

(66) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ.
يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (49/6)، ((تفسير ابن عطية)) (310/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (313/4)، ((تفسير القرطبي)) (205/18).

2- بيانُ الحِكمةِ مِن خَلْقِ الموتِ والحياةِ.

3- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرتِه سُبحانَه، وانفِرادِه بخَلْقِ العوالِمِ العُلْيا خَلْقًا بالِغًا غايةَ الإتقانِ.

4- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ، وبيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ.

5- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ، سواءٌ كان سرًّا أو علانيةً.

6- التَّذكيرُ بمِنَّةِ خَلْقِ هذه الأرضِ، وجَعْلِها مُلائِمةً لحياةِ النَّاسِ، وأمْرُهم بالسَّعيِ فيها، والانتِفاعِ بما فيها مِن وُجوهِ النِّعَمِ.

7- التَّحذيرُ مِن بَطشِ اللهِ وعِقابِه، والتَّذكيرُ بما جرى للكافِرينَ السَّابِقينَ.

8- الدَّعوةُ إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في مَشهدِ الطَّيرِ صافَّاتٍ في الجَوِّ، وفي أحوالِ أنفُسِهم، وأنَّه لا ناصِرَ مِن دونِ اللهِ، وأنَّه إنْ أمْسَكَ رِزقَه فلا رازِقَ لهم غَيرُه سُبحانَه وتعالى.

9- ضَربُ المَثَلِ لأهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، وأهلِ الحَقِّ وأهلِ الباطِلِ.

10- توبيخُ المُشرِكينَ على كُفرِهم نِعمةَ اللهِ تعالى، واستِخفافِهم بوَعيدِه، وأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُذَكِّرَهم بنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن يَرُدَّ على شُبُهاتِهم وأكاذيبِهم بما يَدحَضُها، وأن يَكِلَ أمْرَه وأمْرَهم إليه وَحْدَه.

سورةُ المُلْكِ

الآيات (1–5)

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ
إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا
لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5)

غريب الكلمات:

تَبَارَكَ: أي: تعاظَمَ وتقدَّسَ، وكثُر خيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ.

لِيَبْلُوَكُمْ: أي: لِيَختَبِرَكم ويَمتحِنَكم، وأصلُه: يدُلُّ على الامتِحانِ والاختِبارِ.

طِبَاقًا: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغطِّيَه.

تَفَاوُتٍ: أي: اضْطِرابٍ واختِلافٍ أو عَيبٍ، وتفاوَتَ الشَّيئانِ: تباعَدَ ما بيْنَهما، وأصلُه مِنَ «الفَوتِ» وهو: أن يَفوتَ شَيءٌ شيئًا، فيقَعَ الخَلَلُ.

فُطُورٍ: أي: صُدوعٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه.

كَرَّتَيْنِ: أي: رَجْعتَينِ؛ مرَّةً بعدَ أُخرى، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على تَرديدٍ.

يَنْقَلِبْ: أي: يرجِعْ، وأصْلُ (قلب) هنا: صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ.

خَاسِئًا: أي: صاغِرًا، ذَليلًا، مُبْعَدًا، لم يرَ ما يَهْوَى، وأصلُ (خسأ): يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ.

حَسِيرٌ: أي: كَليلٌ، مُعْيٍ، مُنقَطِعٌ، لم يُدرِكْ ما طَلَب، وهو فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِنَ الحُسورِ الَّذي هو الإعياءُ، يُقالُ: حَسَرَ بَصَرُه: إذا كَلَّ وانقَطَع، وذلك انْكِشافُ حالِه في قِلَّةِ بَصَرِه وضَعْفِه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشيءِ.

رُجُومًا: أي: يُرْجَمُ بها، والرُّجومُ جمعُ رَجْمٍ، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ.

السَّعِيرِ: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ، يُقالُ: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه.

تفسير الآيات:

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1).

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ.

أي: تعاظَمَ وكثُرَ خَيرُ اللهِ الَّذي بيَدِه مُلْكُ العالَمِ أجمَعَ؛ فهو وَحْدَه مَن يتصَرَّفُ فيه كيفَ يَشاءُ بما يَشاءُ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا [الزخرف: 85].

وقال سُبحانَه: قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ [آل عمران: 26، 27].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((يَدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغِيضُها[67] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ[68] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرأَيْتُم ما أنفقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟! فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ)).[69]

وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: واللهُ وَحْدَه ذو القُدرةِ التَّامَّةِ البالِغةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يَمنَعُه أو يُعجِزُه شَيءٌ.

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (2).

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ.

أي: هو الَّذي خلَقَ موتَ الخَلْقِ وحياتَهم.

لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا.

أي: لِيَختَبِرَكم –أيُّها النَّاسُ– بالأوامِرِ والنَّواهي والشَّهَواتِ والمصائِبِ، فيَنظُرَ أيُّكم خيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا –وذلك أخلَصُه للهِ تعالى، وأصْوَبُه بأدائِه وَفْقَ شَرْعِه–، ثمَّ يُجازيَكم على أعمالِكم.

---

(67) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها.

يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (166/1).

(68) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (386/10).

(69) رواه البخاريُّ (4684) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (993).

قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا [هود: 7].

وقال سُبحانَه: إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا [الكهف: 7، 8].

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ.

أي: وهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهِرُ لجَميعِ المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها.

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3).

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا.

أي: هو الَّذي خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ.(70)

(70) ذكر ابنُ كثير (١٤/ ٧١) في قوله: ﴿خلق سبع سموات طباقا﴾ قولين:
الأول: أنهن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهنّ فوق بعض.
الثاني: أنهن متفاصلات بينهن خلاء.
ورجّح –مستندًا إلى السنة– الثاني بقوله: «أصحهما الثاني، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره».

كما قال تعالى حِكايةً عن قَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه المُشرِكِينَ: أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا [نوح: 15].

مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ.

أي: لا ترى في خَلْقِ السَّمواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ![71]

قال تعالى: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ [النمل: 88].

وقال سُبحانَه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [السجدة: 7].

فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ.

أي: فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها أيَّ شُقوقٍ أو صُدوعٍ؟!

كما قال تعالى: أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ [ق: 6].

---

(71) قوله تعالى: ﴿في خلق الرحمن﴾ مراد به السـموات، وقد ذكر ذلك ابنُ عطية (٨/ ٣٥٢) وزاد قولًا آخر، فقال: «وقال آخرون: ﴿في خلق الرحمن﴾ مَعنيّ به: جميع ما في خَلْق الله تعالى من الأشياء، فإنها لا تَفاوت فيها ولا فُطور، جارية على غير إتقان، ومتى كانت فُطور لا تُفسد الشيء المخلوق من حيث هو ذلك الشيء، بل هي إتقان فيه، فليست تلك المرادة في الآية، وقال مُنذر بن سعيد: أمَر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخَلْقها، ثم أمر بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خللًا أو نقصًا، فإنّ بصره يَنقلب خاسئًا حسيرًا».

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4).

ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ.

أي: ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى.

يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ.

أي: يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا؛ لعَجْزِه عن العُثورِ على أيِّ شُقوقٍ في السَّماءِ، والحالُ أنَّ بَصَرَك قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ، وانقطَع مِن الإعياءِ مِن كثرةِ تَكرارِ النَّظَرِ للبَحثِ عن أيِّ تصَدُّعاتٍ فيها!

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (5).

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ.

أي: ولقد جمَّلْنا السَّماءَ القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ.(72)

---

(72) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٥٣): «أخبر تعالى أنه زيّن السماء الدنيا إلينا –أي: التي تلينا– بمصابيح، وهي النّجوم، فإن كانت جميع النّجوم في السماء الدنيا فهذا اللفظ عام للكواكب، وإن كان في سائر السماوات كواكب؛ فإما أن يريد كواكب سماء الدنيا فقط، وإما أن يريد الجميع على أنّ ما في غيرها لما كانت هي تشفّ عنه، ويظهر منها، فقد تزيّنتْ به بوجه ما، ومَن تكلّف القول لمواضع الكواكب وفي أي سماء هي فقوله ليس من الشريعة».

وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ.

أي: ورجَمْنا بتلك النُّجومِ الشَّياطينَ الَّتي تَسترِقُ السَّمْعَ.(73)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ [الحجر: 16 – 18].

وقال سُبحانَه: إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ * لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ [الصافات: 6 – 10].

وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ.

أي: وهيَّأْنا للشَّياطينِ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ، وأشَدَّ الحَريقِ.

(73) قال ابنُ عطية (٨/ ٣٥٣ – ٣٥٤): «﴿وجَعَلْناها رُجُومًا لِلشَّـياطِينِ﴾ معناه: وجعلنا منها، وهذا كما تقول: أكرمتُ بني فلان وصـنعتُ بهم، وأنتَ إنما فعلتَ ذلك ببعضـهم دون بعض، ويوجب هذا التأويل في الآية أنّ الكواكب الثابتة والبروج، وكلّ ما يُهتدى به في البر والبحر فليست برواجم، وهذا نصٌ في حديث السير».

ثم ذكر قول قتادة.

سورةُ المُلْكِ

الآيات (6-11)

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ
تَفُورُ (7) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8) قَالُوا
بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9)
وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا
لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)

غريب الكلمات:

شَهِيقًا: الشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه، أو هو الصَّوتُ الَّذي يَخرُجُ مِن الجَوفِ بشِدَّةٍ كصَوتِ الحِمارِ، والشَّهيقُ: رَدُّ النَّفَسِ، ضِدُّ الزَّفيرِ وهو إخراجُ النَّفَسِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ.

تَفُورُ: أي: تَغْلي، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ.

تَمَيَّزُ: أي: تتقَطَّعُ وتتفَرَّقُ، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ.

فَوْجٌ: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ.

خَزَنَتُهَا: أي: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّمَ، والخازنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ، وأصلُ (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ.

فَسُحْقًا: أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ.

تفسير الآيات:

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6).

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ.

أي: ولِجَميعِ الَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ!

إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (7).

أي: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا عاليًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ تلَهُّبِها وتوَقُّدِها!

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (8).

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ.

أي: تُوشِكُ جَهنَّمُ أن تَتقطَّعَ وتَنفَصِلَ بَعضُ أجزائِها عن بَعضٍ؛ لِشِدَّةِ غَيظِها على أهلِها!

كما قال تعالى: إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا [الفرقان: 12].

كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ.

أي: كُلَّما أُلقِيَ في جهنَّمَ جماعةٌ مِن الكافِرينَ، قال لهم خزَنَتُها مِن الملائكةِ مُوَبِّخِينَ: ألَمْ يأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى؟!

كما قال تعالى: وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [فاطر: 24].

وقال سُبحانَه: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [الزمر: 71].

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (9).

قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا.

أي: قال الكافِرونَ لخَزَنةِ جهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ اللهِ، ولكِنَّا كذَّبْنا.

وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ.

أي: وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللهُ على أحدٍ مِنَ الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحيِ!

إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ.

أي وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ![74]

وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10).

أي: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليومَ في عِدادِ أهلِ النَّارِ، ومِن جُملةِ المُخَلَّدينَ في عَذابِها.

كما قال تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

وقال سُبحانَه: وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [الأحقاف: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 6].

---

(74) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٥٥) في قائل: ﴿إن أنتم إلا في ضــلال كبير﴾ احتمالين، فقال: «وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة للكفار حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كَذّبوا النُّذر، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للنّذر».

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11).

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ.

أي: فأقَرُّوا بذَنْبِهم الَّذي استوجَبَ لهم الخُلودَ في السَّعيرِ.

قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة: 12].

فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ.

أي: فبُعْدًا لأهلِ النَّارِ الملازِمينَ لها مِن رَحمةِ اللهِ تعالى!

سورةُ المُلْكِ

الآيات (12–15)

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12) وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14) هُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)

غريب الكلمات:

يَخْشَوْنَ: الخَشيةُ: خَوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخَوفِ وأَخصُّ منه؛ فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكثرُ ما تكونُ الخَشيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وأصلُ (خشي): يدُلُّ على خَوفٍ وذُعْرٍ.

بِذَاتِ الصُّدُورِ: أي: بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه.

اللَّطِيفُ: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، الَّذي أحاط عِلمُه بالسَّرائرِ والخفايا، الرَّفيقُ بالعبادِ، اللَّطيفُ بهم في مَعايِشِهم، وأرزاقِهم، وهدايتِهم، الموصلُ إليهم مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه مِن طُرقٍ خفيَّةٍ لا يَشعُرون بها، وأصل (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيءِ.

الْخَبِيرُ: أي: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ.

ذَلُولًا: أي: سَهلةً لَيِّنةً لا يَمتنِعُ المَشيُ عليها؛ مِنَ الذِّلِّ: وهو اللِّينُ والانقيادُ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ واللِّينِ.

مَنَاكِبِهَا: أي: أطرافِها ونواحيها وطُرُقِها وفِجاجِها، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ.

النُّشُورُ: أي: البَعثُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (12).

أي: إنَّ الَّذين يخافُونَ اللهَ وهم لم يَرَوه في الدُّنيا، ولم يَرَوا عذابَه، فيُطيعونَه ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم حيثُ لا يَراهم النَّاسُ:[75] لهم مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لِذُنوبِهم، وثوابٌ عَظيمٌ.

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13).

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ.

أي: وأخفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ فكِلا الأمْرَينِ سَواءٌ عِندَ اللهِ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ ممَّا تُسِرُّونَه أو تَجهَرونَ به مِن أقوالٍ.

كما قال تعالى: سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ [الرعد: 10].

وقال سُبحانَه: وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى [طه: 7].

---

(75) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٥٦) في قوله: ﴿بالغيب﴾ احتمالين، ووجّههما، فقال: «﴿بِالغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: بالغَيْبِ الذي أُخبروا به من الحَشْر والصراط والميزان والجنة والنار، فآمَنوا بذلك، وخَشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة.

والمعنى الثاني: أنهم يَخشَون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ومنه تقول العرب: فلان سالم الغيب، أي: لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم، وانفرادهم، فالاحتمال الأول: مدحٌ بالإخلاص والإيمان، والثاني: مدحٌ بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يعملوها علانية».

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بما في قُلوبِ العِبادِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ والخواطِرِ الَّتي لم يُتكلَّمْ بها، فما تكَلَّم به الإنسانُ سِرًّا أو نطَقَ به جهرًا أَولى وأحرى أن يَعلَمَه اللهُ سُبحانَه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ [ق: 16].

أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (14).

أي: وكيف يَخفى عليه سبحانَه ما في الصُّدورِ مِنْ أسرارٍ هو خلَقَها، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ، فيُدَبِّرُها ويَسوقُها لعبادِه برِفقٍ وخَفاءٍ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فهو سُبحانَه عالِمٌ بما بَثَّه في القُلوبِ، وهو العالِمُ ببواطِنِ الأشياءِ وخباياها، فلا تخفَى عليه خافيةٌ؟!

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15).

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا.

أي: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً بحيثُ تَتمكَّنونَ مِن الانتفاعِ بها، بالوطْءِ عليها، والمشْيِ فَوقَها إلى غيرِ ذلك، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً ومُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها!

فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا.

أي: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيثُ شئتُم مِن أقطارِها لطلبِ الرِّزقِ والمكاسِبِ.(76)

وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ.

أي: وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ الحَلالِ الَّذي أودَعَه فيها، وأقْدَرَكم على إخراجِه منها.

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ بعْدَ مَوتِكم، فتُبعَثونَ مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ للجَزاءِ على أعمالِكم.

(76) في قوله: ﴿مناكبها﴾ قولان: الأول: جبالها.

الثاني: نواحيها وأطرافها.

وعلّق ابنُ القيم (٣/ ١٧٤) على القول الأول، فقال: «وحسُن التعبير بمناكبها عن طُرقها وفِجاجها لما تقدّم من وصفها بكونها ذلولًا، فالماشي عليها يطأ على مناكبها، وهو أعلى شيء فيها، ولهذا فُسّرتْ المناكب بالجبل؛ كمناكب الإنسان وهي أعاليه.

قالوا: وذلك تنبيه على أنّ المشي في سُهولها أيسر».

وقد رجّح ابنُ جرير (٢٣/ ١٢٩) القول الثاني مستندًا إلى اللغة، فقال: «وأولى القولين عندي بالصواب قول مَن قال: معنى ذلك: فامشوا في نواحيها وجوانبها، وذلك أنّ نواحيها نظير مناكب الإنسان التي هي من أطرافه».

ورجّح ابنُ القيم -مستندًا إلى الدلالة العقلية- أنّ المناكب هي الأعالي، فقال: «والذي يظهر أنّ المراد بالمناكب: الأعالي. وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له، فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سَطحها، وحسُن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول».

سورةُ المُلْكِ

الآيات (16–19)

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ
أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ
كَانَ نَكِيرِ (18) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (19)

غريب الكلمات:

يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ: أي: يُغَيِّبَكم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غيَّبَه فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ.

تَمُورُ: أي: تَدورُ وتتحَرَّكُ وتَضطَرِبُ، وأصلُ (مور): يدُلُّ على ترَدُّدٍ.

حَاصِبًا: أي: حِجارةً أو ريحًا عاصِفًا ترمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ.

نَكِيرِ: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ.

صَافَّاتٍ: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَها، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في شَيءٍ.

تفسير الآيات:

أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16).

أي: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ مُستَوٍ على عَرشِه فوقَ سَماواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم ذَهابًا وإيابًا؟!

كما قال تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ [الأنعام: 65].

وقال سُبحانَه: أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ [النحل: 45].

وقال عزَّ وجَلَّ: أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا [الإسراء: 68].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ - ﷺ - قال: ((ألَا تَأْمَنوني وأنا أمينُ مَن في السَّماءِ؟!)).[77]

(77) رواه البخاري (4351)، ومسلم (1064).

وعن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه لطَم جاريةً له، وأتى بها النَّبيَّ – ﷺ – يُريدُ عِتقَها، فسألَها النبيُّ: ((أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّماءِ. قال: مَن أنا؟ قالت: أنت رَسولُ اللهِ. قال: أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤمنةٌ)).[78]

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((الرَّاحِمون يَرحَمُهم الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ)).[79]

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (17).

أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا.

أي: أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً يَرميكم بها؟!

فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ.

أي: فستَعلَمونَ حينَ يَحُلُّ العذابُ كيف يكونُ إنذاري، وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به!

---

(78) رواه مسلم (537).

(79) أخرجه أبو داودَ (4941) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (1924)، وأحمدُ (6494) مُطوَّلًا.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ).

وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (127)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (125)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (4941)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (62/1)، وقال السخاوي في ((البلدانيات)) (47): حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ.

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (18).

وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أي: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِ مُشركي قُرَيشٍ رُسُلَهم؛ كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وقَومِ شُعَيبٍ، وقَومِ فِرعَونَ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي أهلكَها اللهُ بعَذابِه في الدُّنيا.

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ.

أي: فكيف كان إنكاري عليهم تكذيبَهم حينَ عَذَّبْتُهم؟!

كما قال تعالى: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ [الحج: 42 – 44].

وقال الله سبحانه وتعالى: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ [ص: 12 – 14].

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ

(19).

أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ.

أي: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ وهي تطيرُ فوقَهم في الجَوِّ ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ غالِبًا، ويَجمَعْنها أحيانًا حينَ يُدنينَها مِن جُنوبِهِنَّ؛ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيرانِ؟

كما قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ [النحل: 79].

مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ.

أي: ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه.

إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ مِن مخلوقاتِه بَصيرٌ، وكُلُّها تحت تَدبيرِه بما تَقتَضيه حِكمتُه.

سورةُ المُلْكِ

الآيات (20-22)

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20) أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21) أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22)

غريب الكلمات:

غُرُورٍ: أي: باطِلٍ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ، والغَرورُ: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِن مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ.

لَجُّوا: أي: تَمادَوْا واستمَرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ.

عُتُوٍّ: أي: طُغيانٍ ومُعانَدةٍ واستِكبارٍ، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ.

وَنُفُورٍ: أي: ذَهابٍ، وبُعدٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ.

مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ: أي: لا يُبصِرُ يمينًا ولا شمالًا، ولا ما بيْنَ يدَيْه، والكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه، وأصلُ (كبب): يدُلُّ على جمعٍ وتجَمُّعٍ.

سَوِيًّا: أي: مُنتصبَ القامةِ، مُعتدلًا، ناظرًا إلى ما بيْنَ يدَيْه، سالمًا مِن العُثُورِ والخُرورِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَيْنِ.

صِرَاطٍ: أي: طريقٍ.

تفسير الآيات:

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (20).

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ.

أي: أم مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ غيرُ الرَّحمنِ؟!

قال تعالى: قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ [الأنبياء: 42، 43].

إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ.

أي: ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ عَظيمٍ قد أحاط بهم، فلا خَلاصَ لهم منه، وذلك باستِمرارِهم على كُفرِهم الَّذي يتوهَّمونه صَوابًا، وتوهُّمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم.

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (21).

أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ.

أي: أم مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ -أيُّها الكافِرونَ- إنْ منَعَه اللهُ عنكم؟!

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ [النحل: 73].

وقال سُبحانَه: هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ [فاطر: 3].

بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ.

أي: لم يَرجِعوا عن تكذيبِهم وكُفْرِهم مع ما ذُكِرَ مِن دلائِلَ وحُجَجٍ، بل استَمَرُّوا وتمادَوا في طُغيانِهم وعِنادِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقّ، وهُروبِهم منه.

كما قال تعالى: وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا [الإسراء: 60].

وقال سُبحانَه: فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ [المدثر: 49 – 51].

أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (22).

أي: أفمَن يَمشي مُنكّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَرَيقَه، فيَسقُطُ مُتعَثِّرًا ويَخِرُّ على وَجهِه: أهْدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا قائمًا، رافِعًا رأسَه ناصِبًا وَجْهَه، سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه، سائِرًا على دَربٍ مُستوٍ واضِحٍ لا اعوِجاجَ فيه؟![80]

---

(80) قال ابنُ جرير (٢٣/ ١٣٢): «قوله تعالى: ﴿أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم﴾ يقول -تعالى ذِكره-: أفمن يمشي -أيها الناس- مُكبًّا على وجهه لا يُبصر ما بين يديه، وما عن يمينه وشماله ﴿أهدى﴾ أشدّ استقامة على الطريق، وأهدى له، ﴿أمن يمشي سويا﴾ مَشي بني آدم على قدميه ﴿على صراط مستقيم﴾ يقول: على طريق لا اعوجاج فيه».

وذكر على ذلك أقوال السلف، ثم ذكر قول مَن قال: عُني بذلك: أنّ الكافر يحشره الله يوم القيامة على وجهه.

ولم يعلّق عليه.

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٦٠ - ٣٦١) في نزول هذه الآية عدة أقوال، ثم وجّه معنى الآية عليها، فقال: «واختَلف أهل التأويل في سبب قوله: ﴿أفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا﴾ الآية، فقال جماعة مِن رواة الأسباب: نزلت مثلًا لأبي جهل بن هشام وحمزة بن عبد المطلب.

وقال ابن عباس، وابن الكلبي، وغيره: نزلت مثلًا لأبي جهل بن هشام ومحمد - ﷺ -.

وقال ابن عباس أيضًا، ومجاهد، والضَّحّاك: نزلت مثالًا للمؤمنين والكافرين على العموم.

وقال قتادة: نزلت مُخبرة عن حال القيامة، وإنّ الكفار يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامة، وقيل للنبي: كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: «إنّ الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر على أن يُمشيه في الآخرة على وجهه».

فوقف الكفار على هاتين الحالتين حينئذ، ففي الأقوال الثلاثة الأُول المشي مجاز يُتخيّل، وفي القول الرابع هو حقيقة يقع يوم القيامة».

سورةُ المُلْكِ

الآيات (23–27)

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23) قُلْ
هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ (25) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ
وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27)

غريب الكلمات:

وَالْأَفْئِدَةَ: جَمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارتِه، أو لتوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ.

ذَرَأَكُمْ: أي: خلَقَكم وكَثَّرَكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ.

زُلْفَةً: أي: قَريبًا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ.

سِيئَتْ: أي: ظهَر فيها السُّوءُ لما حلَّ بها، وقبُحَتْ بالسَّوادِ وأثرِ الكآبةِ، يُقالُ: ساء الشيءُ يسوءُ، فهو سيِّئٌ: إذا قبُح، وسِيء يُساءُ: إذا قبُح، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأُخرويةِ، وأصلُ السُّوءِ: القُبحُ.

تَدَّعُونَ: أي: تطلُبونَ وتَستعجِلونَ؛ (تفتعلونَ) مِن الدُّعاءِ، أو تَدَّعونَ أن لا بعثَ، فهو مِن الدَّعوَى، وأصلُ (دعو) أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنك.

تفسير الآيات:

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (23).

قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكِينَ المكَذِّبِينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدكم مِنَ العَدَمِ.

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ.

أي: وهو الَّذي جعَلَ لكم السَّمعَ لِتَسمَعوا آياتِ اللهِ تعالى، والأبصارَ لِتَنظُروا خَلْقَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والأفئِدةَ لِتَتفكَّروا وتَعتَبِروا فيما سَمِعتُم وشاهَدتُم.

قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ.

أي: قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والأفئِدةِ.

قال تعالى: ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [السجدة: 9].

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24).

قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ–: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها.

وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

أي: وإلى اللهِ تُجمَعونَ بعْدَ هذا التَّفرُّقِ والشَّتاتِ، فيَبعَثُكم مِن قُبورِكم للحِسابِ والجَزاءِ.

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25).

أي ويقولُ المُشرِكونَ: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ في وَعْدِكم هذا؟

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (26).

قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– لهؤلاءِ السَّائِلينَ: إنَّما عِلْمُ وقتِ مجيءِ القيامةِ عِندَ اللهِ وَحْدَه، لا يَعلَمُه أحدٌ سِواه.

كما قال تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ

[الأعراف: 187].

وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ.

أي: وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ إنْ كفَرْتُم إنذارًا بيِّنًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم.

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ (27).

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به شَديدَ القُربِ منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم، وأقلَقَ أفئِدتَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وعَلَتْها الكآبةُ![(81)]

قال الله تبارك وتعالى: وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: 44، 45].

(81) رجّح ابنُ تيمية (٦/ ٣٦٧ بتصرف) في عوْد الضمير في قوله: ﴿فلما رأوه﴾ ما جاء في قول مقاتل وغيره مِن أنه عائد على ما وُعِدوا من العذاب يوم القيامة، وذكر قولًا لم يَنسبه لأحد مِن السلف أنّ الضمير عائد على الله تعالى، وانتقده مستندًا إلى السياق، فقال: «ومَن قال: إنّ الضمير عائد هنا إلى الله.

فقوله ضعيف؛ فإنّ الله قال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾، فهذا يُبيّن أنّ الذي رأوه هو الوعد، أي: الموعود به من العذاب، ألا تراه يقول: ﴿وقيل هذا الذي كنتم به تدعون﴾».

وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ.

أي: وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تطلُبونه وتَسألُونَ تعجيلَه؛ تكذيبًا واستِبعادًا لوُقوعِه!

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قِراءةُ تَدْعُونَ أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَدْعُون اللهَ لِيَأتيَكم به.(82)

2- قِراءةُ تَدَّعُونَ: أي: تَطلبونَ، وقيل: المعنى: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ، فتَدَّعونَ أنَّكم إذا مُتُّم لا تُبعَثونَ. وقيل: معنى تُدْعَوْنَ: تَمْتَرونَ. وقيل: المعنى: تتَمَنَّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو الدُّعاءُ.(83)

---

(82) قرأ بها يعقوبُ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (389/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (201/5)، ((معاني القراءات)) للأزهري (81/3).
(83) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (389/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (394/4)، ((معاني القرآن)) للزجاج (201/5)، ((معاني القراءات)) للأزهري (81/3)، ((تفسير الماوردي)) (57/6)، ((تفسير أبي حيان)) (229/10).

سورةُ المُلْكِ

الآيات (28–30)

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28) قُلْ
هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30)

غريب الكلمات:

يُجِيرُ: أي: يَمنَعُ ويُغيثُ، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: أي: حَميتُه ومنَعْتُه.

غَوْرًا: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ لا تَنالُه الدِّلاءُ، وأصلُ (غور): يدُلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ.

مَعِينٍ: أي: جارٍ ظاهِرٍ على وَجهِ الأرضِ، يُقالُ: مَعَنَ الماءُ: إذا جرى. والمَعينُ: السَّهلُ الَّذي يَنقادُ ولا يَعتاصُ (يصعبُ إخراجُه)، ومُعنانُ الماءِ: مَسايِلُه ومَجاريه، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ.

تفسير الآيات:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (28).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يتضجَّرونَ مِنك، ويتمنَّونَ هَلاكَك والمؤمنينَ معك: أرأيتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن معيَ مِن المؤمنينَ بعَذابٍ أو غيرِه، أو رَحِمَنا.

فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ.

أي: لا يَنفَعُكم وُقوعُ ما تتمَنَّونَ لنا مِنَ الهَلاكِ؛ فسَواءٌ أهلَكَنا اللهُ أو رَحِمَنا، فلا نجاةَ لكم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به.

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29).

قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا.

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في خطَأٍ واضِحٍ وذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ: أنحن أم أنتم؟!

قال تعالى: قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى [طه: 135].

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (30).

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا.

أي: قُلْ لهم –يا محمَّدُ–: أَرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ بحيثُ لا تَقدِرون على تناوُلِه أو استِخراجِه.

قال تعالى: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ [المؤمنون: 18].

فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ.

أي: فمَن يأتيكم إذَنْ بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ تراه العُيونُ؟! لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ القَلَمِ

سورةُ القَلَمِ

سورةُ القَلَمِ

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَلَم).[84]

فضائل السورة وخصائصها:

سُورةُ القَلَمِ مِن أوائلِ ما نزَلَ مِن القرآنِ الكريمِ.

وهي آخِرُ سورةٍ في ترتيبِ المُصحَفِ افتُتِحَتْ بواحدٍ مِن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ.

---

(84) اشتُهِرت تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ (القَلَم)؛ لافتتاحِها بما أقسَمَ اللهُ به، وهو قولُه: وَالْقَلَمِ، وتُسمَّى سُورةَ ن وَالْقَلَمِ على حِكايةِ اللَّفظَينِ الواقِعَينِ في أوَّلِها، وتُسمَّى سُورةَ (ن) اقتِصارًا على الحرفِ المفردِ.

يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: 92)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/476)، ((تفسير ابن عاشور)) (29/57).

سُورةُ القَلَمِ مكِّيَّةٌ،[85] وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك.[86]

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

1- إبطالُ مَطاعِنِ المشركينَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَيانُ ضَلالِهِم.

2- إثباتُ كَمالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا والآخِرةِ، وتَثبيتُه.

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- تَحدِّي المشركينَ بهذا القُرآنِ الكريمِ.

2- الثَّناءُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأفضَلِ أنواعِ الثَّناءِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه مِن أعدائِه.

---

(85) وقيل: مِن قولِه: إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ ...
آية (17) إلى قولِه: لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ آية (33)، ومِن قولِه: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ آية (48) إلى قولِه: فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ آية (50) مَدَنيٌّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (140/23)، ((تفسير الماوردي)) (59/6)، ((الوسيط)) للواحدي (332/4)، ((تفسير أبي السعود)) (11/9).

(86) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والبِقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (317/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (318/4)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (110/3).

وقال السمعاني: (هي مكِّيَّةٌ في قولِ الأكثَرينَ).

((تفسير السمعاني)) (16/6).

ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٦٤) أنّ السورة مكّيّة بلا خلاف بين أهل التأويل.

3- نَهْيُ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مُداهَنةِ المشركِينَ، أو مُلايِنَتِهم، أو مُوافَقَتِهم على مُقتَرَحاتِهم الماكرةِ.

4- بَيانُ سُوءِ أخلاقِ بَعضِ الكُفَّارِ وجَزائِهم.

5- ضَرْبُ المثَلِ لأهلِ مكَّةَ بأصحابِ الجنَّةِ؛ لَعلَّهم يَعتبِرونَ.

6- الموازنةُ بيْنَ عاقِبةِ الأخيارِ والأشرارِ.

7- تَسفيهُ المشركِينَ وتَوبيخُهم، وإقامةُ الحُجَجِ عليهم، وتَهديدُهم.

8- تُختَتَمُ السُّورةُ بتَسليةِ النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرِه بالصَّبرِ على أذى أعدائِه.

سورةُ القَلَمِ

الآيات (1–7)

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ
(3) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6) إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7)

غريب الكلمات:

يَسْطُرُونَ: أي: يَكتُبونَ ويَخُطُّونَ، والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الكِتابةِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ.

مَمْنُونٍ: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن): يدُلُّ على قَطعٍ.

الْمَفْتُونُ: أي: الَّذي فُتِنَ بالجُنونِ، وقيل: مَفتونٌ: بمعنى فِتنةٍ، كما يُقالُ: ليس له معقولٌ، أي: عقلٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختبارٍ وامتحانٍ.

تفسير الآيات:

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (1).

ن.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بِهَذا الحَرْفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بِها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها.[87]

---

(87) اختُلف في المراد بقوله: ﴿ن﴾ على أقوال: الأول: أنّ النُّون: الحوت الذي عليه الأرض.

الثاني: أنّ النُّون: الدَّواة.

الثالث: حرف من حروف الرحمن.

الرابع: لَوح من نور.

الخامس: اسم من أسماء السورة.

السادس: قَسمٌ أقسم الله به.

السابع: حرف من حروف المعجم.

ورجَّح ابنُ القيم (٣/ ١٧٦) القول الأخير، فقال: «الصـحيح أنّ ﴿ن﴾ و﴿ق﴾ و﴿ص﴾ من حروف الهجاء التي يَفتتح بها الرّبّ سبحانه بعض السور».

ولم يذكر مستندًا.

ووجّه ابنُ عطية (٨/ ٣٦٤ – ٣٦٥) المراد بالقلم على القول بأنّ ﴿ن﴾ اسـم الحوت بأنه القلم الذي خَلَقه الله تعالى وأمره فكَتب الكائنات، وأنّ الضمير في ﴿يسطرون﴾ للملائكة، وعلى القول بأنّ ﴿ن﴾ اسم للدَّواة، فـ ﴿القلم﴾ هو المتعارف بأيدي الناس، وأنّ الضمير في ﴿يسطرون﴾ للناس.

ثم علّق على هذا القول بقوله: «فجاء القَسـم –على هذا– بمجموع أمر الكتاب الذي هو قوام للعلوم والمعارف، وأمور الدنيا والآخرة، فإنّ القلم أخو اللسان، ومَطية الفِطنة، ونعمة من الله عامة».

وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ.

أي: أُقسِمُ بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ.

قال تعالى: الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [العلق: 4، 5].

مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2).

أي: لستَ -يا مُحمَّدُ- بسَبَبِ ما أنعمَ اللهُ به عليك مِنَ الهُدى والوَحيِ والنُّبوَّةِ؛ بمَجنونٍ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ!

كما قال تعالى: فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ [الطور: 29].

وقال سُبحانَه: وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [التكوير: 22].

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (3).

أي: وإنَّ لك -يا مُحمَّدُ- لَثوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ١٤٥) -مستندًا إلى السنة- أنّ القلم المُقسَم به هو ما كُتب به القدَر، فقال: «وأما القلم: فهو القلم المعروف، غير أنّ الذي أقسم به ربنا من الأقلام: القلم الذي خَلَقه الله -تعالى ذِكْره-، فأمره فجَرى بكتابة جميع ما هو كائن إلى يوم القيامة».

ثم ساق الأحاديث في ذلك.

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/ ٨٣) -مستندًا إلى النظائر- أنّ المراد بالقلم: جنس القلم، فقال: «وقوله: ﴿والقلم﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يُكتب به، كقوله: ﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق: ٣ - ٥]، فهو قَسَمٌ منه تعالى، وتنبيه لخَلْقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تُنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وما يسطرون﴾».

وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4).

أي: وإنَّك –يا محمَّدُ– لَعلى طَبعٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ بهذا الدِّينِ[88] القويمِ، والقُرآنِ الكَريمِ.

كما قال تعالى: فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ [آل عمران: 159].

وقال سُبحانَه: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة: 128].

وعن سَعدِ بنِ هِشامِ بنِ عامِرٍ، أنَّه قال لعائشةَ رضيَ اللهُ عنها: ((يا أمَّ المؤمنينَ، أنبِئيني عن خُلُقِ رَسولِ اللهِ – ﷺ –. قالت: ألَسْتَ تَقرَأُ القُرآنَ؟ قُلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ – ﷺ – كان القُرآنَ)).[89]

---

(88) علَّق ابنُ عطية (٨/ ٣٦٦) على تفسير الخُلُق بالدّين، بقوله: «وذلك لا محالة رأس الخُلُق، ووَكِيدُه».
ثم رجَّح –مستندًا إلى السياق– أنّ المراد به في الآية: ما يُضاد الجنون، فقال: «أما إنّ الظاهر من الآية أنّ الخُلُق هو الذي يُضاد مقصد الكفار في قولهم: مجنون.
أي: غير محصّل لما يقول».
وعلَّق ابنُ تيمية (٦/ ٣٦٩) على تفسير الخُلُق بالدّين، بقوله: «الدِّين والعادة والخُلُق ألفاظ متقاربة المعنى في الذات، وإن تَنوّعتْ في الصفات كما قيل في لفظة الدّين».
(89) أخرجه مسلم (746).

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خدَمْتُ رَسولَ اللهِ - ﷺ - عَشْرَ سِنينَ، واللهِ ما قال لي أُفًّا قَطُّ، ولا قال لي لشَيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ وهلَّا فعَلْتَ كذا!)).(90)

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((ما ضرَبَ رَسولُ اللهِ - ﷺ - شيئًا قَطُّ بيَدِه، ولا امرأةً، ولا خادِمًا، إلَّا أن يُجاهِدَ في سَبيلِ اللهِ)).(91)

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ - ﷺ - فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، وإنَّه كان يقولُ: إنَّ خيارَكم أحاسِنُكم أخلاقًا)).(92)

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6).

أي: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ-، ويرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ يَقينًا: مَن مِنكم المفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ؟!(93)

---

(90) رواه البخاري (2768)، ومسلم (2309) واللَّفظُ له.

(91) أخرجه مسلم (2328).

(92) رواه البخاري (6035) واللَّفظُ له، ومسلم (2321).

(93) ختُلف في المراد بـ ﴿المفتون﴾ على أقوال: الأول: أنه المجنون.

الثاني: الضّال.

الثالث: أولى بالشيطان.

الرابع: الجنون.

ووجَّه ابنُ جرير (٢٣/ ١٥٣) القول الأخير الذي قاله ابن عباس من طريق العَوفيّ، والضَّـــحّاك، بأنه وُجّه فيه المفتون إلى معنى الفتنة أو الفتون، كما قيل: ليس له معقول ولا معقود، أي: بمعنى: ليس له عقل ولا عقد رأي.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٣٦٧).

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (7).

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، فلم يتَّبعْ دِينَ اللهِ تعالى.

ورجَّحه ابنُ جرير (٢٣/ ١٥٥) مستندًا إلى اللغة، فقال: «لأنّ ذلك أظهر معاني الكلام، إذا لم ينو إسقاط الباء، وجَعلنا لدخولها وجهًا مفهومًا.

وقد بَيّنا أنه غير جائز أن يكون في القرآن شيءٌ لا معنى له».

وانتقده ابنُ تيمية (٦/ ٣٧٧) مستندًا للغة، فقال: «وكون المفتون بمعنى الفتنة لا أصل له في اللغة ألبتة، وجَعْل المصدر على زنة» مفعول «لو صحّ لم يكن قياسًا.

بل مقصورًا على السماع».

وانتقد ابنُ القيم (٣/ ١٨٥) هذه الأقوال، ورجّح أنّ الباء إنما دَخلتْ لتدلّ على تضمين الفعل «تبصر» معنى «تَشعر وتَعلم» -مستندًا إلى النظائر-، فقال: «وهذه الأقوال كلّها تَكلُّف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و» سَتُبصِر «مُضمّن معنى» تَشعر وتَعلم «، فعدي بالباء كما تقول: سَتشعر بكذا وتَعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تُجب مَن دعاك إليه من مكان بعيد».

ورجَّح ابنُ كثير (١٤/ ٨٨) القول الثاني الذي قاله الحسن مستندًا إلى اللغة، فقال: «ومعنى ﴿المفتون﴾ ظاهر، أي: الذي قد افتُتن عن الحق وضَلّ عنه، وإنما دَخلت الباء في قوله: ﴿بأييكم المفتون﴾ لتدلّ على تضمين الفعل في قوله: ﴿فستبصر ويبصرون﴾، وتقديره: فستَعلم ويَعلمون، أو: فستُخبر ويُخبرون بأيكم المفتون».

ورجَّح ابنُ تيمية (٦/ ٣٧٥) -مستندًا إلى القراءات، وأقوال السلف- القول الثالث الذي قاله مجاهد، والحسن، وقتادة، فقال: «قوله تعالى: ﴿بأيكم المفتون﴾ حار فيها كثير من الناس، والصواب فيها التفسير المأثور عن السلف».

ثم عَلّق على قول الحسن بقوله: «فبيّن الحسن المعنى المراد وإن لم يتكلّم على اللفظ، كعادة السلف في اختصار الكلام مع البلاغة وفهم المعنى».

ثم قال: «ويدلّ أيضًا على هذا المعنى في الآية أنّ في قراءة أُبيّ بن كعب، والجَوْنيّ، وابن عبلة: (في أيّكُمُ المَفْتُونُ) والشيطان مفتون بلا ريب».

وذكر (٦/ ٣٧٥ - ٣٧٦) أنّ القول الثاني الوارد عن الحسن أيضًا موافق لما ذُكر؛ فإنّ الضّال به المفتون الذي هو شيطان، ثم قال: «وإنما ذَكر الحسن لفظ الضّال؛ لأنهم لم يريدوا بالمجنون الذي يَخرق ثيابه، ويَقذف بالحجارة، ويَتكلّم بالهذَيان».

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

أي: واللهُ أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا، فأقَرُّوا بالحَقِّ واتَّبَعوه.

سورةُ القَلَمِ

الآيات (8–16)

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13) أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14) إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16)

غريب الكلمات:

وَدُّوا: أي: تمنَّوا، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةِ الشَّيءِ، وتمنِّي كَونه.

تُدْهِنُ: أي: تَلينُ لهم، وتوافِقُهم، وتُصانِعُهم على باطِلِهم، والإدهانُ: اللِّينُ والمُصانَعةُ. والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ.

هَمَّازٍ: أي: عَيَّابٍ، مُغتابٍ للنَّاسِ، وهمزُ الإنسانِ: اغتيابُه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ.

مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ: أي: كثيرِ المَشيِ بالنَّميمةِ، نقَّالٍ للحَديثِ على وَجهِ الإفسادِ، والنَّمُّ: إظهارُ الحَديثِ بالوِشايةِ، ونميمٌ ونميمةٌ بمعنًى واحدٍ، وقيل: النَّميمُ جمعُ نميمةٍ، وأصلُ (مشي) هنا: يدُلُّ على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ (نمم): يدُلُّ على الهَمسِ والحَركةِ الخفيفةِ.

أَثِيمٍ: أي: فاجرٍ كثيرِ الإثمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، واشتُقَّ الإثمُ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه.

عُتُلٍّ: أي: فَظٍّ، غليظٍ، جافي الخُلُقِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ في شَيءٍ.

زَنِيمٍ: أي: دَعِيٍّ مُلصَقٍ بالقَومِ، وليس منهم، وأصلُ (زنم): يدُلُّ على تعليقِ شَيءٍ بشَيءٍ.

أَسَاطِيرُ: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ.

سَنَسِمُهُ: أي: نُعَلِّمُه بعَلامةٍ يُعرَفُ بها، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ.

الْخُرْطُومِ: أي: الأنْفِ. والرَّاءُ فيه زائِدةٌ، والأصلُ فيه الخَطْمُ، وأصلُ (خطم): يدُلُّ على تقَدُّمِ شَيءٍ في نُتُوٍّ يكونُ فيه.

تفسير الآيات:

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (8).

أي: فكما أنعَمْنا عليك –يا مُحمَّدُ– بالدِّينِ المستقيمِ والخُلُقِ العَظيمِ، لا تُطعِ المكذِّبينَ بالحقّ؛ فليسُوا أهلًا لأن يُطاعوا؛ إذ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُوافِقُ أهواءَهم، ولا يُريدونَ سِوى الباطِلِ.

كما قال الله تعالى: فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا [الفرقان: 52].

وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9).

أي: أحَبَّ مُشرِكو قُرَيشٍ –يا مُحمَّدُ– وتَمَنَّوا لو تَلينُ لهم في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم؛ كتَرْكِ النَّهيِ عن الشِّركِ، أو السُّكوتِ عن عَيبِ آلهتِهم، وتَسفيهِ آبائِهم، أو الرُّكونِ إلى آلهتِهم، فيَلِينونَ لك أيضًا، ويُصانِعونَك فيما تَدْعوهم إليه مِنَ الحَقِّ؛ كتَرْكِ الطَّعنِ فيه، أو موافقَتِه، وامتِثالِ بَعْضِه.[94]

---

(94) اختُلف في معنى قوله: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ على قولين: الأول: أنّ المعنى ذلك: ودّ المُكذّبون بآيات الله لو تكفر بالله –يا محمد– فيكفرون.

الثاني: ودُّوا لو تُرخِّص لهم فيُرخِّصون، أو تَلين في دينك فيَلينون في دينهم.

ورجَّح ابنُ جرير (٢٣/ ١٥٧) –مستندًا إلى النظائر، واللغة– القول الثاني الذي قاله ابن عباس من طريق العَوفيّ، ومجاهد، وقتادة، فقال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب: قولُ مَن قال: معنى ذلك: ودّ هؤلاء المشركون –يا محمد– لو تَلين لهم في دينك بإجابتك إياهم إلى الرُّكون إلى آلهتهم، فيَلينون لك في عبادتك إلهك، كما قال –جلّ ثناؤه–: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلا إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ [الإسراء: ٧٤ – ٧٥].

وإنما هو مأخوذ من الدُّهن، شبّه التَّليين في القول بتَليين الدُّهن».

كما قال الله تبارك وتعالى: وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا [الإسراء: 74].

وقال سُبحانَه: أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ [الواقعة: 81].

وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10).

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ مُكثِرٍ للحَلِفِ، ضَعيفٍ حَقيرٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، ناقِصِ الهِمَّةِ.

هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (11).

هَمَّازٍ.

أي: كَثيرِ العَيبِ للنَّاسِ، والطَّعنِ فيهم حالَ غَيبتِهم.

كما قال تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [الهمزة: 1 - 3].

مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ.

أي: نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ مِن بَعضِ النَّاسِ إلى بَعضٍ، بغَرَضِ الإفسادِ بيْنَهم.[95]

---

(95) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٦٨) أنّ كثيرًا من المفسرين ذهب إلى أنّ هذه الأوصاف هي أجناس لم يُرِد بها رجل بعينه، ورجَّحه مستندًا إلى العموم، فقال: «وظاهر اللفظ عمومُ مَن هذه صفته».

ثم قال: «والمخاطبة بهذا المعنى مُستمرّة باقي الزمن، لا سيما لولاة الأمور».

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ – ﷺ – يقولُ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ نَمَّامٌ)).[96]

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ النَّبيُّ – ﷺ – بحائطٍ[97] مِن حيطانِ المدينةِ أو مكَّةَ، فسَمِعَ صوتَ إنسانَينِ يُعذَّبانِ في قُبورِهما، فقال النَّبيُّ – ﷺ –: يُعَذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى؛ كان أحدُهما لا يَستَتِرُ مِن بَولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمةِ. ثمَّ دعا بجَريدةٍ، فكسَرَها كِسرَتينِ، فوضَعَ على كُلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً، فقيل له: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ فعلْتَ هذا؟ قال: لعَلَّه أن يُخَفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا، أو إلى أن يَيْبَسا)).[98]

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (12).

مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ.

أي: شَديدِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ، بخيلٍ بالمالِ عن إنفاقِه في وُجوهِه المطلوبةِ.[99]

---

(96) رواه البخاري (6056)، ومسلم (105) واللَّفظُ له.

(97) بحائطٍ: أي: بُستانٍ مِن النَّخلِ عليه جِدارٌ.

يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (286/1).

(98) رواه البخاري (216) واللَّفظُ له، ومسلم (292).

(99) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٦٩) أنّ كثيرًا من المفسرين قالوا: الخير هنا المال، فوصفه بالشح.

ونقل عن آخرين أنه على عمومه في المال والأفعال الصالحة، وعلّق عليه بقوله: «ومَن يَمنع إيمانه وطاعته لله تعالى فقد مَنع الخير».

كما قال تعالى: إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا [المعارج: 19 – 21].

مُعْتَدٍ أَثِيمٍ.

أي: مُتَجاوزٍ للحُدودِ، كثيرِ الإثمِ والذُّنوبِ.

عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (13).

عُتُلٍّ.

أي: فَظٍّ غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، شديدِ الخصومةِ، جافٍ شَديدٍ.(100)

(100) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٦٩) أنّ العُتُلّ: القويّ البنية، الغليظ الأعضاء، المُصحَّح، القاسي القلب، البعيد الفهم، الأَكُول الشَّروب، الذي هو بالليل جيفة وبالنهار حمار.

ثم علّق بقوله: «فكلّ ما عبّر به المفسرون عنه من خلال النقص فعن هذه التي ذكرتُ تصْدر».

ثم بيّن أنّ هذه الصفات كثيرة التلازم.

عن حارِثَةَ بنِ وَهبٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ - ﷺ - يقولُ: ((ألَا أُخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ[101] جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ)).[102]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ - ﷺ - قال عندَ ذِكرِ أهلِ النَّارِ: ((كُلُّ جَعْظَرِيٍّ[103] جَوَّاظٍ، مُستَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ)).[104]

بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ.

أي: بعدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به: دَعِيٍّ، مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم.

---

(101) الجَوَّاظُ: قيل: هو الكثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مَشْيِه.
وقيل: هو الأكولُ.
وقيل: الفاجرُ.
وقيل: الجَوَّاظُ: الفَظُّ الغليظُ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/663).

(102) رواه البخاري (4918)، ومسلم (2853).

(103) الجَعْظريُّ: قيل: هو الفَظُّ الغليظُ.
وقيل: الذي لا يَمرَضُ.
وقيل: الذي يُتمدَحُ بما ليس فيه أو عندَه.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (8/663).

(104) أخرجه أحمد (6580) واللَّفظُ له، والحاكمُ (3844)، والبَيْهَقيُّ في ((شعب الإيمان)) (8172).
صحَّحه الحاكمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ).
وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((حادي الأرواح)) (112)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (10/86)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (4/321).

أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (14).

أي: مِن أجْلِ أنَّه صاحِبُ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، فيَتقوَّى بهم ويتجبَّرُ ويتكبَّرُ!

كما قال تعالى: ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا [المدثر: 11 – 16].

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (15).

أي: إذا تُتلَى على هذا الكافِرِ آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سَطَروها في كُتُبِهم.

لَمَّا ذَكَر قَبائحَ أفعالِه وأقوالِه؛ ذَكَر ما يُفعَلُ به على سَبيلِ التَّوعُّدِ، فقال:

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (16).

أي: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْن النَّاسِ![105]

(105) اختُلف في ﴿سنسمه على الخرطوم﴾ على أقوال: الأول أنّ المعنى: سَنخطمه بالسيف، فنجعل ذلك علامة باقية، وسمة ثابتة فيه ما عاش.

الثاني: سِيما على أنفه.

الثالث: سَنسمه سمة أهل النار.

أي: سنُسوّد وجهه.

الرابع: سَنشينه شينًا باقيًا.

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٣٧٢) على القول الأخير الذي قاله قتادة من طريق سعيد، بقوله: «فيكون ذلك كالوسم على الأنف ثابتًا بيّنًا، وهذا المعنى كما تقول: سأطوقك طوق الحمامة، أي: أُثبت الأمر بَيّنًا فيك».

ورجَّحه ابنُ جرير (٢٣/ ١٧٠ – ١٧١)، فقال: «وأولى القولين بالصواب في تأويل ذلك عندي قول مَن قال: معنى ذلك: سُنبين أمره بيانًا واضحًا حتى يعرفوه، فلا يخفى عليهم، كما لا تخفى السمة على الخرطوم».

ولم يذكر مستندًا، ثم قال: «وقد يحتمل أيضًا أن يكون خطم بالسيف، فجمع له مع بيان عيوبه للناس الخطم بالسيف».

وعلَّق ابنُ كثير (١٤/ ٩٤) عليه بقوله: «وهو مُتَّجِه».

سورةُ القَلَمِ

الآيات (17–33)

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ
(18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20) فَتَنَادَوْا
مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ
(23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا
رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ (28) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَلَاوَمُونَ (30) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31) عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى
رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33)

غريب الكلمات:

بَلَوْنَاهُمْ: أي: امتحَنَّاهم واختبَرْناهم، والبلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بلو) هنا: نوعٌ مِن الاختبارِ.

لَيَصْرِمُنَّهَا: أي: لَيَجتَنُونَها، ويَقطَعونَ ثمَرَها، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ.

وَلَا يَسْتَثْنُونَ: أي: ولا يقولونَ: إن شاء اللهُ. يُقالُ: حلَفَ فُلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنْيا ولا ثَنْوَى ولا ثَنِيَّةٌ ولا مَثْنَوِيَّةٌ ولا استِثناءٌ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه مِن الثَّنْيِ، وهو الكفُّ والرَّدُّ؛ وذلك أنَّ الحالِفَ إذا قال: واللهِ لَأفعَلَنَّ كذا إلَّا أن يَشاءَ اللهُ غَيْرَه، فقد ردَّ ما قاله بمشيئةِ الله غيرِه.

طَائِفٌ: أي نارٌ أو عَذابٌ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وإحاطتِه به.

كَالصَّرِيمِ: أي: كاللَّيلِ المُظلِمِ البَهيمِ، أو كالمَصرومةِ المقطوعةِ لهلاكِ ثَمَرِها. وكُلُّ شَيءٍ قُطِعَ فهو صَرِيمٌ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ.

اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ: أي: أقبِلُوا على ثِمارِكم وزُروعِكم باكِرينَ، أو: اخرُجوا غُدوةً، يقالُ: غَدا يَغْدو غُدُوًّا، والغُدُوُّ: سيرُ أَوَّلِ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ، وأصلُ (حرث) هنا: يدُلُّ على الجمعِ والكسبِ.

صَارِمِينَ: أي: حاصِدينَ زَرْعَكم أو عازِمينَ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ.

يَتَخَافَتُونَ: أي: يَتهامَسونَ بيْنَهم، ويُسِرُّ بَعضُهم إلى بعضٍ، وأصلُ (خفت): يدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ.

حَرْدٍ: الحَرْدُ: المَنعُ مِن حِدَّةٍ وغَضَبٍ، ويُطلَقُ الحرْدُ على القَصدِ والغَضَبِ والمَنْعِ.

تفسير الآيات:

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (17).

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ.

أي: إنَّا امتحنَّا أهلَ مَكَّةَ كما امتحنَّا أصحابَ البُستانِ.

كما قال تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ [النحل: 112 – 114].

وقال سُبحانَه: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ [الدخان: 10 – 17].

إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ.

أي: حينَ حَلَف أصحابُ البُستانِ فيما بيْنَهم على جَذِّ ثِمارِ بُستانِهم في أوَّلِ الصَّباحِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لئلَّا يَعلَموا بهم، فتتوفَّرَ ثمارُه عليهم بالكامِلِ، ولا يتصَدَّقوا منه بشَيءٍ!

وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18).

أي: ولم يَسْتَثْنِ أصحابُ الجَنَّةِ في قَسَمِهم، ولم يَقولوا: إنْ شاء اللهُ.

فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19).

أي: فوَقَع على بُستانِهم ليلًا[106] عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده ودَمَّرَه كلَّه، وأصحابُه نائِمونَ، وعمَّا أصابه غافِلونَ!

فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20).

أي: فصار ذلك البُستانُ مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المظلمِ![107]

---

(106) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٣) أنّ الفراء خصص «الطائف» بأنه الأمر الذي يأتي بالليل، وانتقده مستندًا إلى النظائر، فقال: «ويرُدّه قوله تعالى: ﴿إذا مسهم طائف من الشيطان﴾ [الأعراف: ٢٠١]».

(107) ذكر ابنُ جرير (٢٣/ ١٧٤) أنه «اختلف أهل التأويل في الذي عُني بالصريم؛ فقال بعضهم: عُني به: الليل الأسود.

وقال بعضهم: معنى ذلك: فأصبحت جنتهم محترقة سوداء كسواد الليل المظلم البهيم».

ثم ساق أثر ابن عباس مِن طريق شيخ من كلب، ثم قال: «وقال آخرون: بل معنى ذلك: فأصبحت كأرض تُدعى الصريم معروفة بهذا الاسم».

ثم ساق قول سعيد بن جبير.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21).

أي: فنادى أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لجَذاذِ ثَمَرِهم.

أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (22).

أي: قالوا: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمرِه قبْلَ مَجيءِ المساكِينِ إليه![108]

فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23).

أي: فانطَلَقَ أصحابُ البُستانِ إلى بُستانِهم وهم يَتناجَونَ فيما بَيْنَهم بحيث لا يَسمَعُ حَديثَهم أحدٌ.

أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24).

أي: قال بَعضُهم لبَعضٍ سِرًّا: لا يَدخُلَنَّ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكِينِ في هذا اليَومِ!

وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25).

وقد تقدم الأثر في أول القصة على أنه اسم للجنة كما ورد في بعض المصادر.

(108) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٣) أنّ قوله: ﴿إن كنتم صارمين﴾ يحتمل احتمالين: الأول: «أن يكون من صِرام النخل».

الثاني: «أن يريد: إن كنتم من أهل عزم وإقدام على آرائكم، من قولك: سيف صارم».

أي: وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ وهم قاصِدونَ بإرادةٍ جازِمةٍ وغَضَبٍ وحِدَّةٍ مَنْعَ[109] المساكينِ مِن ثمارِهم، وقادِرونَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ، ومَنْعِ المساكينِ.

---

(109) اختُلف في معنى الحرد على أقوال: الأول: أنّ معناه: على قصد.

الثاني: على قدرة في أنفسهم وجِدّ.

الثالث: على فاقة وحاجة.

الرابع: على حَنق.

الخامس: أنّ «الحرد» اسم الجنة.

السادس: على منع.

ذكره ابنُ جرير (٢٣/ ١٧٨ – ١٧٩)، ونسبه لبعض أهل اللغة من البصرة.

وذكر أنّ مَن قال بالقول الأخير وجّه المعنى إلى أنه من قولهم: حارَدت السنة إذا لم يكن فيها مطر.

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٣٧٤).

وانتقده ابنُ جرير مستندًا لأقوال السلف، فقال: «وهذا قول لا نَعلم له قائلًا مِن متقدمي العلم قاله، وإن كان له وجْه، فإذا كان ذلك كذلك، وكان غير جائز عندنا أن يُتعدى ما أجمعتْ عليه الحُجّة، فما صحّ من الأقوال في ذلك إلا أحد الأقوال التي ذكرناها عن أهل العلم».

ورجَّح -مستندًا إلى اللغة، وأقوال السلف- القول الأول الذي قاله وعكرمة، ومجاهد، من طريقي إبراهيم بن المهاجر، وابن أبي نجيح، وذلك أنّ «المعروف من معنى الحرد في كلام العرب: القصد، من قولهم: قد حَرَد فلان حرْد فلان: إذا قصد قصده؛ يعني: يقصد قصدها».

وعلَّق ابنُ عطية (٨/ ٣٧٤) على القول الأول بقوله: «وبذلك فسّر بعض اللغويين».

وذكر ابنُ تيمية (٦/ ٣٧٩) «أنّ» الحرد «يحتمل أن يُراد به: المنع، والقصْد، والغضب».

فقال: «الحرد فيه معنى العزم الشديد؛ فإنّ هذا اللفظ يقتضي هذا، وحرد السنة والناقة لما فيه من معنى الشدة، وكذلك الحَنق والغضب فيه شدة؛ فكان لهم عزم شديد على أخْذها، وعلى حرمان المساكين».

وبنحوه قال ابنُ عطية (٨/ ٣٧٤).

وذكر (٨/ ٣٧٥) أنّ قوله تعالى: ﴿قادرين﴾ يحتمل احتمالين: الأول: «أن يكون من القدرة، أي: هم قادرون في زعمهم».

الثاني: «أن يكون من التقدير، كأنهم قد قَدَروا على المساكين، أي: ضيّقوا عليهم».

وعلّق عليه بقوله: «ومنه قوله تعالى: ﴿ومن قُدِر عليه رزقه﴾ [الطلاق: ٧]».

ذكر ابنُ تيمية (٦/ ٣٧٨) «أنّ» الحرد «يرجع إلى القصد، وأنهم غَدوا بإرادة جازمة وقدرة، ولكنّ الله أعجزهم».

ثم ساق هذا القول الذي قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل، وعلَّق بقوله: «وقول مَن قال: ...

فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26).

أي: فلمَّا رأى أصحابُ البُستانِ بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا وأخطَأْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا!

بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27).

أي: قالوا: كلَّا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ إليه، وإنَّما حقيقةُ الأمرِ أنَّنا حُرِمْنا الانتِفاعَ به، فلا حظَّ لنا في شَيءٍ مِن ثمارِه!

قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (28).

أي: قال أعدَلُهم وأعقَلُهم وأفضَلُهم: ألم أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سبحانَ اللهِ؟!

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (29).

أي: قالوا مُعترِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يَكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، وإنَّما نحن الَّذين وقَعْنا في الظُّلمِ فجَنَيْنا على أنفُسِنا!

أي: ظنّوا أنّ الأمر يبقى كما كان، ولو كان كذلك لتمّتْ قدرتهم، لكن سُلبوا القدرة بإهلاك جَنّتهم».

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (30).

أي: فأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم على ما وَقَع منهم مِن ظُلمٍ!

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (31).

أي: قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد اعتَدَيْنا وبَغَيْنا وتَجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى حتَّى أصابَنا ما أصابَنا.

عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ (32).

عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا.

أي: نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك.

إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ.

أي: إنَّا إلى ربِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ؛ فلذا نَطمَعُ أن يُبْدِلَنا خيرًا مِن بُستانِنا.

كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33).

كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ.

أي: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه ومَنَع المحتاجينَ، فبَدَّلَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وطغى وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسلُبُه نِعمتَه ويُزيلُها عنه.(110)

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا، فلو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ ذلك لَتابُوا، وانتَهَوا عن كُلِّ سَبَبٍ يُوجِبُ عَذابَهم، ولكِنَّهم لا يَعلَمونَ!

(110) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٦) أنّ أكثر المفســرين على أنّ العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنّة: هو الجدب الذي أصابهم سبع سنين، حتى رأوا الدُّخان، وأكلوا الجلود.

سورةُ القَلَمِ

الآيات (34-41)

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ
كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) أَمْ
لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ
(40) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41)

غريب الكلمات:

زَعِيمٌ: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدُلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ.

تفسير الآيات:

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (34).

أي: إنَّ الذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه: لهم في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَبِيدُ ولا يَنقَضي، الخالي مِن كُلِّ ما يُنغِّصُه ويُكَدِّرُه.

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35).

أي: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى، وانقادُوا لأمْرِه، واجتَنَبوا نَهْيَه، وذَلُّوا بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ له وَحْدَه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ، ورَكِبوا المعاصيَ، وخالَفوا أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؟! كَلَّا؛ فإنَّما يُثيبُ اللهُ المسلِمينَ، ويُعَذِّبُ المُجرِمينَ، كما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه.

كما قال تعالى: أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ [السجدة: 18 - 20].

وقال سُبحانَه: أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ [ص: 28].

وقال عزَّ وجَلَّ: أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ [الجاثية: 21].

وقال تبارك وتعالى: لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ [الحشر: 20].

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36).

أي: أيُّ شيءٍ حصَل لكم مِن خللِ الفكرِ وفسادِ الرَّأيِ، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائرَ، كأنَّ أمرَ الجزاءِ في الآخرةِ مفوَّضٌ إليكم، تَحكمونَ فيه بما شِئْتُم!

أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38).

أي: أَلكم كتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تقرؤونَ فيه مِرارًا حتَّى تَحفَظوا أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ حتَّى تُساووا بيْنَ المسلمينَ والمُجرمينَ؟![111]

كما قال تعالى: أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا [فاطر: 40].

---

(111) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٦) أنّ قوله تعالى: ﴿إن لكم فيه لما تخيرون﴾ للمفسرين فيه قولان: الأول: «أنه استئناف قول، على معنى: إن كان لكم كتاب فلكم فيه متخيّر».

الثاني: «﴿إن﴾ معمولة لـ ﴿تدرسون﴾، أي: في الكتاب إنّ لكم ما تختارون من النعيم، وكُسرت الألف من ﴿إن﴾ لدخول اللام في الخبر، وهي في معنى:» أن «بفتح الألف».

وقال الله سُبحانَه وتعالى: أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [الصافات: 156، 157].

أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (39).

أي: أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤكَّدةٌ قد أقسَمْنا عليها، وهي مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ، بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تختارونَه؟!

سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (40).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك هؤلاء: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ الملتَزِمُ بادِّعائِه صِحَّةَ ذلك؟

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (41).

أي: أم للكُفَّارِ شُرَكاءُ للهِ في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إذَن لِيَجعَلوا لهم نصيبًا مِن ثوابِ اللهِ تعالى أو يجعلوهم مِثلَ المسلمينَ في الآخرةِ، إن كانوا صادِقينَ في زَعْمِهم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ سُبحانَه![112]

---

(112) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٧) أنّ قوله تعالى: ﴿فليأتوا بشـركائهم﴾ فيه قولان: الأول: «أنه اسـتدعاء وتوقيف في الدنيا، أي: ليُحضِروهم حتى يُرى هل هم بحال مَن يضر وينفع أم لا؟».

الثاني: «أنه استدعاء وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة، يوم يُكشف عن ساق».

سورةُ القَلَمِ

الآيات (42–47)

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ
تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43) فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا
الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45) أَمْ
تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47)

غريب الكلمات:

خَاشِعَةً: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ.

تَرْهَقُهُمْ: أي: تغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ.

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُه مِنَ الدَّرْجِ: وهو لفُّ الشَّيءِ وطَيُّه، والاستِدراجُ هو طَيُّ مَنزلةٍ بعْدَ مَنزلةٍ، ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الدَّرَجةِ، فيكونَ معنى الاستدراجِ في الأمرِ: أن يُحطَّ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتَّى يَنتهيَ إلى مَقصودِه.

وَأُمْلِي لَهُمْ: أي: أؤَخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ وأطيلُ لهم المدَّةَ، وأترُكُهم مُلاوةً مِن الدَّهْرِ، أي: حِينًا مِن الدَّهرِ، والمُلاوةُ المُدَّةُ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملي): الزَّمَنُ الطَّويلُ.

مَتِينٌ: أي: قَويٌّ شَديدٌ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ في الشَّيءِ.

مَغْرَمٍ: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، والغرمُ أداءُ كلِّ شيءٍ يَلزَمُ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ.

مُثْقَلُونَ: أي: مُجهَدونَ لِما كلَّفْتَهم به، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ.

تفسير الآيات:

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (42).

يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ.

أي: يَوْمَ يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه عن ساقِه الكريمةِ، وذلك يومَ القِيامةِ.(113)

---

(113) اختُلف هل هذه الآية من الصفات أم لا؟ ورجَّح ابنُ تيمية (٦/ ٣٨٢) -مستندًا إلى اللغة- أنها ليست من آيات الصفات، فقال: «لا ريب أنّ ظاهر القرآن لا يدلّ على أنّ هذه من الصفات؛ فإنه قال: ﴿يوم يكشف عن ساق﴾ نكرة في الإثبات، لم يُضفها إلى الله، ولم يَقلْ: عن ساقه فمع عدم التعريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل».

وذكر (٦/ ٣٨٣) «أنّ أصل الخلاف راجع لعدم الإضافة، وأنّ مَن يجعلها من الصفات يقول فيها كقوله: ﴿لما خلقت بيدي﴾ [ص: ٧٥] ونحو ذلك، فإنه مع الصفات تُثبتُ، ويجب تنزيه الرّبّ تعالى عن التمثيل».

وذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٧٨) أنّ ما جاء من أمر الكشف عن الساق في الآية فإنما هو عبارة عن شِدّة الهول، ثم علَّق بقوله (٨/ ٣٧٨ - ٣٧٩): «ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب:

كَشَفَتْ لهم عن ساقها وبَدا عن الشّرّ البراح

وأصل ذلك: أنه مّن أراد الجدّ في أمر يحاوله فإنه يَكشف عن ساقه تشميرًا وجِدًّا، وقد مدح الشعراء بهذا المعنى فمنه قول دريد:

كَمِيشُ الإزار خارج نصف ساقه صبور على الضراء طلّاع أنجُد

وعلى هذا من إرادة الجِدّ والتشمير في طاعة الله تعالى، قال - ﷺ -: «إزْرَةُ المؤمن إلى أنصاف ساقيه»».

وبيّن أنّ قوله تعالى: ﴿ويُدعون﴾ ظاهره أنّ ثمّ دعاء إلى السجود، وانتقده بقوله: «وهذا يَردّه ما قد تقرّر في الشرع من أنّ الآخرة ليست بدار عمل، وأنها لا تكليف فيها».

ثم علَّق بقوله: «فإذا كان هذا فإنما الداعي ما يَرونه من سجود المؤمنين فيريدون أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون».

وذكر أنّ البعض ذهب إلى أنهم يُدعَون إلى السجود على جهة التوبيخ، وأنّ البعض خرج من قوله: ﴿فلا يستطيعون﴾ أنهم كانوا يستطيعونه قبل ذلك، وعلَّق عليه بقوله: «وذلك غير لازم».

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ – ﷺ – يَقولُ: ((يَكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيَسجُدُ له كُلُّ مُؤمنٍ ومُؤمنةٍ، فيَبقى كُلُّ مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيا رِياءً وسُمعةً، فيَذهَبُ ليَسجُدَ، فيَعودُ ظَهرُه طَبَقًا واحِدًا!)).[114]

وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ.

أي: ويُدْعَونَ إلى السُّجودِ للهِ تعالى في ذلك اليَومِ، فلا يَقدِرونَ على ذلك.

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه –في حديثِ الرُّؤيةِ والشَّفاعةِ الطَّويلِ– أنَّ النَّبيَّ – ﷺ – قال: ((... فيُكشَفُ عن ساقٍ، فلا يبقَى مَن كان يَسجُدُ للهِ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه إلَّا أَذِنَ اللهُ له بالسُّجودِ، ولا

---

(114) رواه البخاري (4919) واللَّفظُ له، ومسلم (183).

وممَّا يُستأنسُ به حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا جمَع اللهُ العبادَ بصعيدٍ واحدٍ نادَى مُنادٍ: يَلحَقُ كلُّ قومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، ويبقَى النَّاسُ على حالِهم، فيأتيهم فيقولُ: ما بالُ النَّاسِ ذهَبوا وأنتم هاهنا؟ فيَقولونَ: نَنتَظِرُ إلهَنا، فيقولُ: هل تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: إذا تعرَّف إلينا عرَفْناه، فيَكشِفُ لهم عن ساقِه، فيَقَعونَ سُجَّدًا، وذلك قولُ اللهِ تعالى: يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ، ويبقَى كلُّ منافقٍ، فلا يستطيعُ أن يَسجُدَ، ثمَّ يَقودُهم إلى الجنَّةِ)).

أخرجه الدَّارِميُّ (2803) واللَّفظُ له، وابنُ أبي عاصم في ((السُّنة)) (732).

حسَّن إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((كتاب السنة)) (732)، وجوَّده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (584).

وقال أيضًا (129/2): (وهو نصٌّ في الخِلافِ السَّابقِ في «السَّاق»، وإسنادُه قويٌّ).

وأخرجه مِن طريقٍ آخَرَ ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (811)، وقال: (مقبولٌ، رُواتُه مَشاهيرُ).

يَبقى مَن كان يَسجُدُ اتِّقاءً ورياءً إلَّا جعَل اللهُ ظَهْرَه طَبقةً واحِدةً، كلَّما أراد أن يَسجُدَ خَرَّ على قفاه!)).[115]

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (43).

خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً.

قال تعالى: وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ [الشورى: 45].

تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ.

أي: تَغشاهم ذِلَّةٌ شديدةٌ.

قال تعالى: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا [يونس: 27].

وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ.

أي: وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ، مُعافَونَ، لا يَمنَعُهم شَيءٌ!

كما قال تعالى: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى [القيامة: 31، 32].

---

(115) رواه البخاري (7439)، ومسلم (183) واللَّفظُ له.

وقال سُبحانَه: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ [المرسلات: 48].

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (44).

فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ.

أي: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بالقُرآنِ، فخَلِّ بيْني وبيْنَهم، وفوِّضْ أمْرَهم إلَيَّ؛ فإنِّي أكفيكَهم، فلا تَستعجِلْ هَلاكَهم، ولا ينشَغِلْ قَلْبُك بهم!

كما قال تعالى: وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا [المزمل: 10، 11].

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: سنُقَرِّبُ هؤلاء المكذِّبينَ بالقُرآنِ مِن عَذابِهم شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ مِن جِهاتٍ وأسبابٍ لا يتفطَّنونَ إلى أنَّها مُفضِيةٌ بهم إلى الهلاكِ؛ حيثُ يَزيدُهم اللهُ تعالى مِن مَتاعِ الدُّنيا، فيَحسَبونَ ذلك خَيرًا لهم![116]

كما قال تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الأنعام: 44، 45].

---

(116) ذكر ابنُ عطية (٨/ ٣٨٠) «أنّ الاستدراج هو: الحمْل من رتبة إلى رتبة، حتى يصير المحمول إلى شرّ».
ثم علّق بقوله: «وإنما يُستعمل الاستدراج في الشّرّ، وهو مأخوذ من الدرَج».
وساق الأقوال.

وقال سُبحانَه: فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ [المؤمنون: 54 – 56].

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (45).

وَأُمْلِي لَهُمْ.

أي: وأُمهِلُهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ.

كما قال تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [آل عمران: 178].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ [هود: 102]))[117].

---

(117) رواه البخاري (4686) واللَّفظُ له، ومسلم (2583).

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ.

أي: ذلك مِن مَكرِي وكَيدِي بهم، ومَكري قَويٌّ شَديدٌ!

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (46).

أي: أم تَسألُ قَومَك مالًا –يا مُحَمَّدُ– مُقابِلَ إبلاغِهم الحَقَّ، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك فيَمتَنِعون عن قَبولِ نَصيحتِك، والاستِجابةِ لك؟!

قال تعالى: وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [يوسف: 104].

وقال سُبحانَه: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [ص: 86، 87].

أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (47).

أي: أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عن الخَلقِ، فهم يَكتُبونَه؟!

سورةُ القَلَمِ

الآيات (48–52)

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48) لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50) وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52)

غريب الكلمات:

مَكْظُومٌ: مَكروبٌ، مُمتَلِئٌ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزْنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ.

لَنُبِذَ: أي: لأُلقِيَ وطُرِحَ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرْحِه؛ لقِلَّةِ الاعتِدادِ به.

بِالْعَرَاءِ: أي: المكانِ الخالي، لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُه: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ.

فَاجْتَبَاهُ: أَي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ.

لَيُزْلِقُونَكَ: أي: لَيَرمُونَك، ويُزيلونَك عن مَوضِعِك؛ مِن حِدَّةِ نَظَرِهم إليك بأبصارِهم، كما يُقالُ: كاد يَصرَعُني لشِدَّةِ نَظَرِه إلَيَّ؛ مِنْ: أزلَقَه عن مَوضِعِه: إذا رماه ونَحَّاه، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عن مَقامِه.

تفسير الآيات:

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (48).

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ.

أي: فاصبِرْ -يا مُحَمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا: بتبليغ رِسالتِه، والانقيادِ التَّامِّ لأمرِه، وتحمُّلِ أذى الكُفَّارِ والمُشرِكينَ في سَبيلِ ذلك دونَ سخطٍ أو جزَعٍ لإمهالِهم.

كما قال تعالى: فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آَثِمًا أَوْ كَفُورًا [الإنسان: 24].

وقال سُبحانَه: وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا... [الطور: 48].

وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ.

أي: ولا تَكُنْ -يا مُحَمَّدُ- في الضَّجَرِ والغضَبِ، والعَجَلةِ وقِلَّةِ الصَّبرِ على قَومِك؛ كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ بسَبَبِ ذلك في بَطنِ الحُوتِ.

إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ.

أي: حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مملوءٌ غَيظًا وغَمًّا وهَمًّا.

قال الله سُبحانَه: وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء: 87، 88].

لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49).

أي: لولا أنْ أدركَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِنَ النَّاسِ والأشجارِ والبِناءِ، وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ!

كما قال تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ [الأنبياء: 88].

وقال سُبحانَه: فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [الصافات: 145، 146].

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (50).

أي: فاصطفَى اللهُ يُونُسَ، وجعلَه مِن عِبادِه الطَّائِعينَ الَّذين فَضَّلَهم؛ مِمَّن صَلَحَت أعمالُهم، وأقوالُهم، ونيَّاتُهم، وأحوالُهم.

كما قال تعالى: وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: 85 - 87].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: ((ما يَنبغي لعبدٍ أن يقولَ: أنا[118] خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى)).

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (51).

وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ.

أي: ولقد أوشَكَ الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك نَظَرَ عَداوةٍ وغَيظٍ منك، وحَسَدٍ لك، وذلك لَمَّا سَمِعوا كلامَ اللهِ يُتلَى عليهم!

كما قال تعالى: وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا [الحج: 72].

---

(118) قوله: ((أنا)) يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ذلك تواضُعًا إنْ كان قالَه بعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّه سيِّدُ البشَرِ.

وقيل: هو عبارةٌ عن كلِّ قائلٍ يقولُ ذلك؛ كي لا يُفضِّلَ أحدٌ نفْسَه على يُونسَ عليه السَّلامُ.

قيل: وخَصَّ يُونسَ بالذِّكرِ؛ لِما يُخْشى على مَن سَمِعَ قِصَّتَه أنْ يَقَعَ في نفْسِه تَنقيصٌ له، فبالَغَ في ذِكرِ فضْلِه لسَدِّ هذه الذَّريعةِ.

وقد وَرَدَ ما يُؤيِّدُ هذا القولَ ويدُلُّ عليه.

يُنظر: ((شـرح النووي على مسـلم)) (132/15)، ((فتح الباري)) لابن حجر (267/8)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (462/1).

أخرجه البخاري (4630)، ومسلم (2377).

وأخرجه البخاري (3416)، ومسلم (2376) أيضًا من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ.

أي: ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ، وهذا الَّذي جاءَنا به هَذَيانٌ يَهذِي به في جُنونِه!

وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (52).

أي: وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ مِنَ اللهِ لجَميعِ الإنْسِ والجِنِّ.

كما قال الله تبارك وتعالى: وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [يوسف: 104].

وقال سُبحانَه: قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [ص: 86، 87].

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

ويَليه المجلَّدُ الأربعونَ، وأوَّله: تفسير سُورة الحاقَّةِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

المغني في التفسير

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا